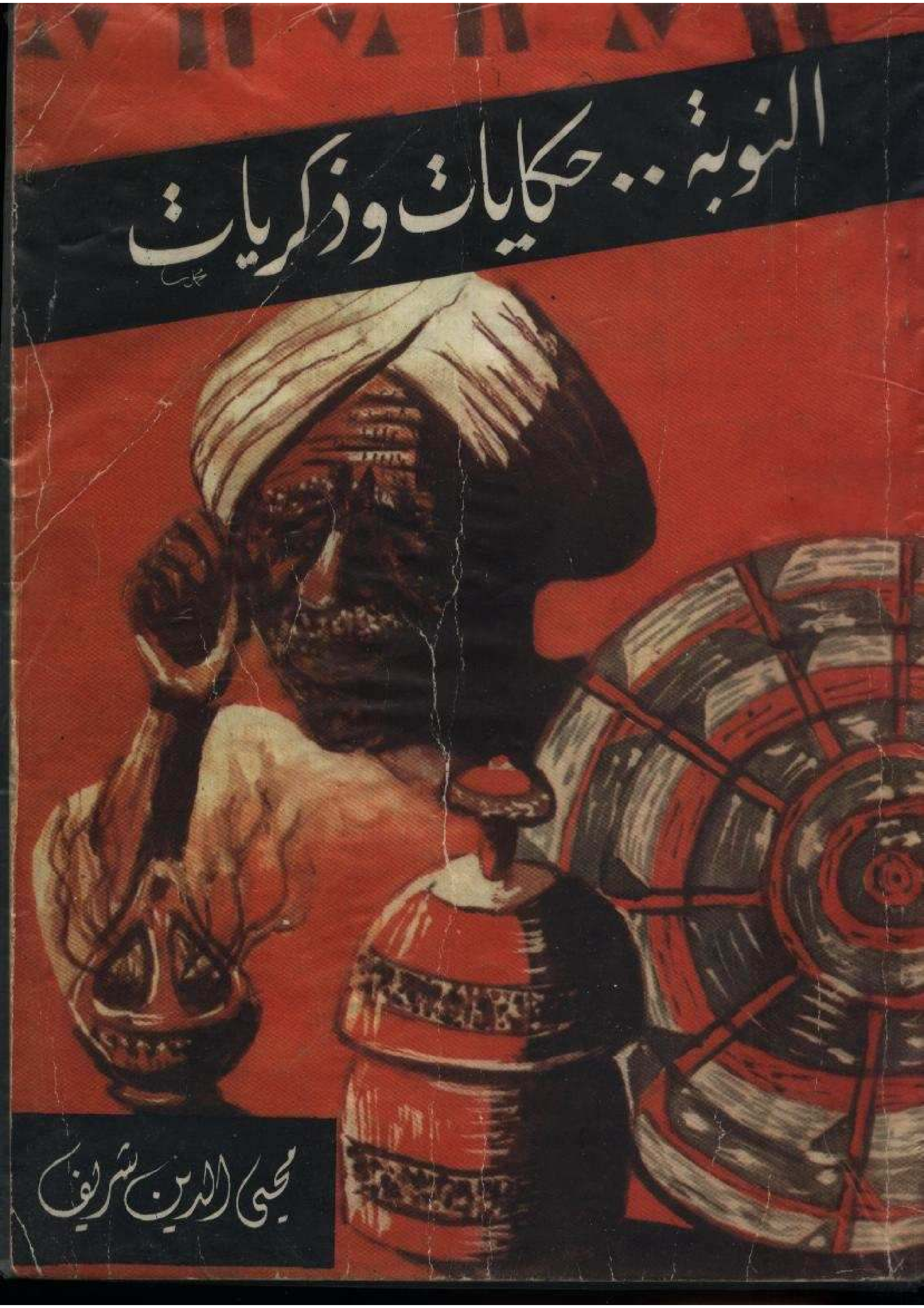

المرتضى
مكتبة السودانية


النوبة.. حكايات وذكريات
محيي الدين شريف



فتـــاة النوبة تحمـل الهـدية الـرمزية
لمسافر على عـادة الأهـل والعشيرة
هنــــاك .....

الغـلاف والرسوم بريشة المؤلف

مقدمة

النوبة جزء من تاريخ مصر . . فهى تمثل العمق فى التاريخ المصرى وقد تناول هذا التاريخ عدد كبير من المؤرخين والباحثين والدارسين لكل مناحى الحضارات الإنسانية من جميع أنحاء العالم . . ولكن شاب بعض هذا التأريخ والدراسة أحياناً السطحية والعجالة وبخاصة فيما يتعلق بفلسفة العادات والتقاليد فى مجتمع النوبة .

ومن هنا برزت فكرة تكوين جمعية الحفاظ على التراث النوبى وتهدف إلى توفير المعلومات والبيانات للدراسة المتعمقة للمهتمين بهذه الدراسات وبخاصة بعد تهجير النوبيين من منطقة النوبة وما ترتب عليه من حدوث متغيرات اقتصادية وبيئية لها أثرها فى تركيبة المجتمع النوبى أثرت بصورة أو بأخرى على عاداتها وتقاليدها الحضارية الموروثة .

والأستاذ محى الدين شريف - وهو عملاق نوبى يحتفظ فى عمقه الوجدانى بحضارة الإنسان النوبى - كان من أوائل المفكرين فى تكوين هذه الجمعية ومن العاملين بكل الجهد والإخلاص فى إنشائها والتى حرصت منذ اللحظة الأولى على العمل لإصدار سلسلة من الدراسات سوف تصدر تباعاً إن شاء الله متميزة بأن تكون نابعة من نبعها الصحيح من وجدان أبناء النوبة الجزء العزيز من وطننا الأم مصر الغالية .

وهذه الحكايات والذكريات عشنا بعضها وعايشنا البعض الآخر منها وهي فى سردها بهذه العبارات البسيطة العميقة، تمثل بساطة حياة النوبى وعمقها الحضارى وبعدها الإنسانى الرفيع. وتشمل هذه الحكايات والذكريات بعض العادات والتقاليد النوبية وهناك اختلافات بسيطة فى تفاصيلها بين مناطق النوبة المختلفة وقد تكون تلك الاختلافات بين قرية وأخرى ولكن يظل المضمون والهدف واحداً فى كل الأحوال .

وجمعية الحفاظ على التراث النوبى وهى تقدم الأستاذ محيي الدين شريف وسط عبير النوبة . حكايات وذكريات تؤكد إن شاء الله أنها البداية على الطريق لسلسلة الدراسات والمؤلفات عن النوبة بأقلام أبنائها .

جمعية الحفاظ على التراث النوبى

المؤلف

محي الدين شريف

* من مواليد قرية أبو سمبل مركز عنيبة ــ أسوان . درس بكتاب القرية ومدرستها وأتم دراساته بالقاهرة .
* درس العلاقات العامة والتخطيط الإعلامى فى المراكز المتخصصة وشغل وظائفها فى الشركة التى عمل بها .
* وكيل وعضو مؤسس فى جمعية الحفاظ على التراث النوبى ، ومستشار الإعلام بنادى النوبة العام ، وعضو بالجمعيات الخيرية النوبية .
* عمل ناقداً فنياً ، ومحرراً ورساماً بأغلب المجلات السودانية التى ظهرت بمصر ، وكذلك المجلات النوبية .
* قدمت له إذاعة ركن السودان عديداً من الأحاديث والنصوص

المختلفة والتمثيليات ، كما قدمت قصته (دهب ودهيبة) فى سهرة كاملة بإذاعة صوت العرب .

* قدمت له مسرحيات مختلفة فى حفلات الهيئات النوبية وفرقها التمثيلية بمسارح القاهرة والإسكندرية . . وتحتل الأغانى التى كتبها بالنوبية جزءاً كبيراً من حفلات النوبيين وأفراحهم .

* يؤدى الأغنيات من كلماته الفنان العالمى حمزة علاء الدين . . وقد طبعت الأغنيات فى (اسطوانات) توزع عالمياً .

* كتب العديد من الأغنيات باللغة النوبية والدارجة المصرية ، والسودانية غناها فنانون عديدون أمثال الفنان السودانى إسماعيل عبد المعين . . ومن النوبة عبد الله باطة ، وعبد الفتاح صالح ، وأحمد منيب ، وحسن جزولى ، والأدندانى ، وماجدة على . . . وغيرهم .

* درس بالقسم الحر بكلية الفنون الجميلة ، وعمل رساماً ومحرراً بكثير من الجرائد والمجلات . . وشارك بالرسوم واللوحات فى المعارض التى أقامتها الهيئات النوبية بالقاهرة والإسكندرية .

* عاون الكثيرين من الدارسين والمهتمين بالتراث النوبى من العادات والتقاليد وأغنية النوبة فى رسالاتهم وأبحاثهم.

* * *

تحت الاعداد والطبع من تأليفه :

١ ــ رواية (دهب ودهيبة) .

٢ ــ قصة (كله تمام) .

٣ ــ قصة عندما تشرق الشمس من جديد .

٤ ــ مشواري مع النغمة والأغنية النوبية .

* * *

الإهداء ...

إلى كل أبناء بلادنا . . وادى النيل . . مصره وسودانه . . .

إلى كل أبناء منطقة النوبة ومن عرفوها كجزء عزيز من بلادنا ... بحضارتها العريقة .

أهدى . . هذه الحكايات والذكريات . . .

أما زمان حدوثها ومكانها . . . فقد انقضيا ، وانتهيا إلى الأبد .

فالزمان قبل منتصف عام ثلاثين وما قبل ذلك .

والمكان هو منطقة النوبة القديمة التى اختفت فى بحيرة السد العالى . . .

ولم تبق لنا إلا الحكايات والذكريات . . .

نهديها . . . بكل الحب لكل الأهل والعشيرة فى أرجاء بلادنا الغالية .

القاهرة فى / ٦ / ١٩٨٦ م .

محى الدين شريف

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

النوبة حكايات وذكريات . . وهي التي ظلت باقية في ذاكرتي ووجداني . . ظلت رغم مرور السنوات العديدة التي مرت . . . خمسون عاماً أو يزيد . . فيالها من حكايات وذكريات .

هي ليست سيرة ذاتية . . ولكنها حكاياتنا ... ذكرياتنا . . . نحن أبناء النوبة . . . عشت بعضها . . . وعايشت البعض الآخر .

وقد شغل تفكيري أمر تدوينها ونشرها في كتاب سنوات شتى . . . وظل الأمل قائماً في أن يعينني الله سبحانه وتعالى على إنجازها . . . لتكون أول حكايات وذكريات يرويها ابن من أبناء منطقة النوبة العزيزة من وطننا الأكبر مصر . . وشقيقها السودان . . . وادي النيل بأكمله . . هذا الوادي الذي أجمع كل المؤرخين . . والباحثين وغيرهم من الكتاب . . . أجمعوا على أن سكانه قد ساهموا بأبرز الأدوار وأجلها في حضارة الإنسان . . الإنسان في كل أرجاء الدنيا . . لينسج حياة لائقة به كما كرمه الله خالقه وفضله على غيره من مخلوقاته في الوجود كله .

على أنني أود أن أشير إلى أنه ليس بالضرورة أن يكون كل

ما جاء بهذه الحكايات والذكريات قد حدثت لى شخصياً . . . ولكن هناك الكثير مما حدث لغيرى من أبناء النوبة . . ولا أعتقد أنها تضيف جديداً لمن عاشوا قديماً فى منطقة النوبة ، بقدر ما ستشحذ ذكرياتهم وحكاياتهم وقت أن عاشوها فى النوبة القديمة ، وقد حرصت على أن أسردها فى كلمات بسيطة بساطة حياتنا وقت ذاك . . . كما عشتها وعرفتها . . . فى ذلك الزمان الذى ولى وانتهى .

أما المكان – وهو النوبة القديمة – فقد غرق وانتهى بدوره فى قاع بحيرة السد العالى . . ولم يبق به من معالم النوبة شيئاً على الإطلاق(١) فعلى امتداد البحيرة العملاقة المعبأة بالكم الضخم من المياه بين جنبيها . . لا يرى المشاهد إلا فراغاً يتسع إلى بضع كيلو مترات فى أغلب أجزائها . . وسلسلة من الجبال الصلدة والتلال الجيرية على البعد البعيد شرقاً وغرباً .

كنا مجموعة من أبناء النوبة . . وكنت معهم تجمعنا رحلة إلى مدينة أبو سنبل وقرى التكامل ، هناك فى وسط البحيرة . . . كانت الباخرة النيلية البطيئة تسير بنا حثيثاً نحو الجنوب من أسوان . . . وما أن توغلت بنا الباخرة فى قلب البحيرة حتى شدتنا الذكريات شداً وأغرقتنا فى متاهاتها . . . فانكب كل منا يتأمل مياه البحيرة الضخمة . . . كنا كمن يبحث عن شىء ضائع ، بل أشياء عزيزة علينا . . . كنا نتصور

---

(١) توجد حالياً مدينة أبو سمبل السياحية كأجمل مدينة من مدن مصر العزيزة . . . . . وقرى التكامل التى أخذت تنشأ هنا وهناك على ضفاف بحيرة السد فى الفترة الأخيرة .

من حيث لا ندرى – أننا قد نرى دورنا . . . دوربنا . . نخلينا . . . قرانا . . . فى قاع المياه المعتمة . . . وبدون إرادتنا . . . ذرفنا دموعنا ساخنة . كنا كلنا سواء فى مشاعرنا . . . وإحساسنا بأن الباخرة قد تكون سائرة فوق قبور آبائنا وأجدادنا وأحبائنا الذين فارقناهم بالهجرة . . . عندما تركنا كل ما توارثناه منهم . . . تبتلعها المياه . . . وتأملت الوجوه من حولى . . . بدت حزينة . . . ولكن سرعان ما استبدلتها بمسحة من الرضا . . فهم أبناء وادى النيل المخلصون . . والذين عرفوا دائماً بالتضحية من أجل الحياة . . وبالعطاء اللانهائى للوطن الأكبر وطغى علينا إحساس رائع بالأمل . . . الأمل فى إعادة بناء الحياة فى كل بقاع بلادنا كأجمل ما تكون الحياة . . . بإذن الله وتوفيقه .

ومع الذكريات والحكايات كتبت كلمات بالعامية أذكر منها هذه الأبيات بعنوان (مشتاقين) :

نادرين لما نرجع تانى — لبلاد الجمال ربانى
جوه البيت حنزرع نخله — تطرح خير وتعمل ضله
والعصافير تلقط غله — فى الحوش الكبير والرمله
جار الساقية فى العصرية — نحكى حكاوى
والأفراح حتملى الناحية — ويا غناوى
ترقص النخيل — وتدق الطبول
ونغنى كمان وكمان — لبلاد الأمان وسلام
مشتاقين يا ناس للبيت — لنجمع الحبايب
للنخل الكتير والغيط — حيعود اللى غايب
لبلاد الدهب — للنوبه . . . مشتاقين

ولا يسعنى فى هذا المقام . . إلا أن أحمد الله تعالى حمداً كثيراً وشكراً جزيلا ، على ما وهبنى من جهد لأنجز كتابة هذه الحكايات والذكريات من النوبة . . وهى تتضمن جزءاً كبيراً من عادات وتقاليد أهل النوبة كما كانت فى تلك الفترة من الزمان ، فى تلك البقعة من المكان . . وشكراً جزيلا لكل من عاونونى من أبناء النوبة .

وحمداً لله تعالى .

محى الدين شريف

* * *

تنـــويه ...

فى العادات والتقاليد النوبية هناك اختلافات بسيطة فى تفاصيل التطبيق . . . فى المناطق المختلفة منها .

وقد تكون تلك الاختلافات موجودة حتى بين القرية والأخرى هناك .

ويظل المضمون ، والهدف واحداً فى كل الأحوال . . . فالشاب الذى يزور النيل ويسبح به تبركاً يوم زفافه فى منطقة القسم (الفادجا) ... هو نفس التقليد فى منطقة الكنوز عندما يقصد (العريس) النيل ويغمس سيفه يوم الزفاف . . . وهكذا .

فللعادات والتقاليد لها وظيفتها الهامة التى تؤديها فى المجتمع . . . ولها مؤشراتها الدالة على التكافل الاجتماعى . . ومدى ممارسة الإنسان لوعيه الاجتماعى وحسه الإنسانى فى المناسبات والمواقف المختلفة .

* * *

الحكاية والذكرى (١)

الحائــط المائــل

لا تزال معالم قريتنا في النوبة واضحة في وجداني وذاكرتي .. رغم مرور سنوات عديدة منذ غادرناها مهاجرين . إن معالمها واضحة تماماً في ذهني وكأنها تلك المعابد والتماثيل والمسلات التي قدها أجدادنا في جبال النوبة منذ آلاف السنين . ولا تزال تحكي عن أمجادهم . . وعندما استعيد تذكرها ، فإن مسحة من السعادة تنطبع على وجهي وأحاسيسي ، فأغمض عيناى في تلذذ للاستزادة منها . . وأشعر بسعادة ما بعدها سعادة . . فهي حكاياتنا . . ذكرياتنا . . وعندما نقولها .. نرويها في سعادة غامرة .. وكأننا نغوص في عوالم وردية المعالم .

كان قرص الشمس الذهبي وكأنه يختفي خلف التلال من ناحية الشرق وفي فجر كل يوم ترتفع الشمس شيئاً فشيئاً في مشهد رائع . . لتضفي على رؤوس النخيل التي تملأ أغلب مساحات القرية . . تضفي عليها مسحة من اللون الزبرجدى الرائع . . ثم تفترش شمس النهار كل الأرجاء . . وتستحم شعاعات منها في ماء النيل الذي يجرى منحدراً نحو الشمال أبداً . . كأنها أغنية لا تنتهي عذوبتها .

كانت أغنيات عذبة رتيبة تتخللها بعض إيقاعات الدفوف تتردد هنا وهناك .. يرددها العاملون أغلب نهارهم في الحقول مع ضربات الفئوس :

هلا . . . هلا . . . هيا نزرع
بكره نحصد . . . خير كتير
نشبع . . . . نشبع
ثم نعطى للجيران
. . . . ما يفيض
الخير كتير . . . الخير كتير
هلا . . . . هلا

وترانيم أغنيات نسمعها من البعد . . يغنيها البحارة على فلائكهم التى تسبح فوق صفحة النهر شارعة أشرعتها البيضاء . . وكانت الفلائك دائماً مجهزة بالدفوف . . فسحر النهر وجمال الطبيعة وطول المشوار . . كلها تدعو للغناء . . وتسمع من يغنى فى شوق وحرمان وعشق . . يقول :

السمراء . . . أين لى تلك الفاتنة
فقد استبد بى الشوق لرؤياها
قد تكون السمراء غاضبة منى
. . . . . . لسبب لا أعرفه . . . . .
. . . . فإذا كان الأمر كذلك
. . . فبالله عليكم . . . حدثوها
. . . خلال رشفات شاى الضحى
. . . وخلال السمر الممتع فى وجودها
وفى رقة اطلبوا منها أن تسامحنى
. . . فالخصام حرام . . . حرام
يا سمرائى . . . .

وفترة الطفولة تشدنى ذكرياتها لدروب القرية . . بين النخيل . . وظلالها . . وأتطلع إلى بيوت النجع بالقرية . . فأتصور حوائطها . . وواجهاتها الطينية ، التى كانت تزينها أطباق الصينى الزاهية فتكسر حدة قتامة حوائطها . . لتبدو واجهات البيوت كوجوه سمراء . . مبتسمة دائماً أبداً .

لم أكن قد تجاوزت الثامنة أو التاسعة فى تلك الحقبة من الزمان . . ولا شاغل لى إلا اللعب والجرى والصخب ، مع قرنائى من أولاد وبنات القرية الصغار . . وفى تصورى أننى لم أكن لأعرف أن هناك عوالم أخرى غير قريتنا ولا أناس غير أهل القرية . . فهذا كان عالمى الرحب الكبير وأهله فى نظرى أهل كل الدنيا .

كان الأهل والعشيرة كلهم طيبون . . متشاغلون دائماً فى هدوء بالزراعة أو الاهتمام بالنخيل أو الساقية . . أما أنا فقد كنت الابن الوحيد للأم (سبيلة) تخصنى بحب خاص . . ويجاريها أهل النجع فى ذلك . . فلا تكاد الأم سبيلة ترفض لى طلباً بقدر استطاعتها . . وعرفت أن والدى ليس بين هؤلاء الرجال من أهل النجع . . قالوا : إنه فى مكان بعيد . . فى المدينة ، يعمل عملا آخر غير الزراعة . . وجنى البلح . . وما إلى ذلك مما يعمله رجال القرية . . عمل آخر . . ماذا ؟ . . لا أعرف . . ولم يكن يهمنى ذلك كثيراً . . فالأهل والعشيرة فى نجعنا يشملوننى دائماً بعطفهم وحنانهم . . ويتحدثون عن نوادرى دون باقى الأطفال . . فسمعتهم يقولون : إننى مرة عندما كنت صغير . أننى أتيتهم مرة أحمل جلباباً مزركشاً من ملابس أمى (سبيلة)

كنت أضعه فى عناية على كتفى كما يفعل الرجال بعباءاتهم السوداء . . ووجدت الأم سبيلة تزغرد . . وتبارك ما فعلت . . فقد كان ذلك الفعل ترجمة منى لما يقوله أهل النوبة عندما يقولون : (فلان صائم) . . فيقولون : (فلان جامل صيام) . . (مسيج إنا كاغن) . . وبعقلى الصغير تصورت أن تلك العباءات المحمولة على أكتاف الرجال هى الصيام . . حدث ذلك فى شهر رمضان . . ويضحكون ويقولون : إننى ظللت أحمل الجلباب كل يوم . . حتى زهقت منه وتركته . . وأننى فضلت أن أصوم مثل قرنائى من الصغار . . أصوم بإذنى . . فقد كانت العادة أن يقول الكبار للصغار : إن الصيام للصغار بالإذن . . بمعنى أن لا يسمع كلمة جارحة . . أو يذم أحداً . . أو ما شابه ذلك . . فذلك هو صيام الصغار . . حتى يبلغوا أشدهم ويمكنهم الصيام بمعناه الصحيح فى النوبة .

عند طرف القرية كان هناك بيتاً قديمـاً مهدماً ، هجره أهله . . وبقى منه جدار مائل . . أسندوه بجذع نخلة قديمة حتى لا يسقط على رأس المـارة . . ولا أعرف كيف اهتديت إلى اختيار ذلك الحائط المـائل . . أجرى وأندس تحته بجسدى الضئيل مهدداً بالموت تحته إذا لم يستجاب لى طلب أطلبه .

وفى كل مرة أفعل فيها ذلك . . كان أهل النجع الطيبون يتجمعون عند الحائط المـائل . . يستجدوننى الخروج سالمـاً قبل أن تحدث الكارثة ، ويقع الحائط المـائل على أم رأسى ويقتلنى . . ولكننى كنت دائمـاً أجد الاستجابة لطلبى فأخرج منتصراً . . ورغم أننى

كررت فعلتي هذه عدة مرات . . فقد استجابت الأم سبيلة لطلبي في كل مرة إنقاذاً لحياتي . . فأنا وحيدها المدلل غير أنهم كانوا يرجونني أن لا أعود لفعلتي هذه مرة أخرى . . ولكنني كنت أعود مرة ومرات .

الأم « سبيلة » كانت في كل مرة تصرخ بين الجمع تندب حظها وتلعن يوم أن أنجبتني . . ويهدئ الجمع من روعها . . ويعدونها – بدلا مني – بأنني لن أعود لفعلتي تلك . . وأذكر أنها في مرة هددتني بأنها ستقص شعر رأسها وذلك يجلب العار كاعتقاد أهل النوبة . . ومرة هددتني بأنها ستقطع ثديها الذي أرضعتني منه . . ولا استجابة مني . . فقد كنت أنسى كل تلك التهديدات بعد فترة قليلة وأعود للالتجاء إلى الحائط المائل عند طرف القرية .

ودار حديث مرة بين بعض أهل القرية في نجعنا حول مشكلة الحائط عندما قال أحد الأهل الطيبين في لهجة استغراب دون مقدمات :

– إن أمر ذلك الحائط المائل اللعين . . غريب . . ولماذا لا نهده ونستريح من أخطاره . . لماذا ؟ !!

ورد صوت يائس :

– نهده ؟ . قال : ومن المستعد لأن يعرض نفسه للخطر . . وقد يداهمه الحائط بثقله ويقضي على حياته ؟ !!

وأضاف واحد . . .

– إن سمك الحائط غريب . . ضخم . . إنه أثري . . ومن يعرف قد تكون تحته أفاعي وثعابين وعقارب تتخذ من أسفله مسكناً .

ويكمل آخر . . .

– وقد تخرج تلك الحشرات السامة كلها دفاعاً عن مسكنها وتهاجم من يحاول هدم الحائط . . لا ياعم . . اتركنا وشأننا .

وترتفع بعض الضحكات . . والتى تنتهى باتفاقهم على أنهم سيمنعوننى من اللجوء إلى الحائط المائل . . وكذلك من المرور فى ذلك الطريق الذى يجاوره حتى لا ينهد على رأسى .

كانت الحرارة شديدة فى أيام الصيف . . وفى بدايته تجىء أيام يسمونها (زمتة النيل) . . فالفيضان على وشك أن يولد . . وأذكر أن وجهى كان يمتلىء بحبوب صغيرة على الجلد يقولون عنها : حبوب الصيف (غوف كبريد) . . ولكننا نحن الأطفال لم نكن لنبالى . . ولا نتوقف عن الجرى واللعب والسباحة فى النيل رغم تحذيرات الكبار التى لا تتوقف فيقولون لنا :

– الشمس حارقة يا ولاد .

– الزموا الظل حتى لا تصابوا بضربة الشمس :

– الزواحف والعقارب تخرج من مكامنها فابتعدوا عن هيش النخيل .

– و . . و . . و . .

كل شىء فى القرية تنفث الحرارة فى مثل تلك الأيام . . أيام زمتة النيل . الأرض . . الجدران . . التلال الحجرية شرق القرية . . وتسبح سحابات داكنة فى سماء القرية فى بطء . . وتسير كلاب القرية هناك وهناك لاهثة من شدة الحرارة . . تتدلى ألسنتها فى ارتخاء ،

وتختار بغريزتها الظلال الرطبة وتحتلها راقدة . . نطاردها نحن الأطفال ونضربها بالحجارة . . تجرى لاهثة إلى ظل آخر . . ونتشاجر مع بعضنا البعض أحياناً لأن طفلا ضرب الكلب الذى نملكه .

كنا نعرف نوعيات النخيل رغم كثرتها فى كل النجع . . ونعرف أصحابها . . فقد عرفنا الأنواع من الكبار ومن كثرة مجاورتنا لها خصوصاً أيام الحر . . لا نغادر ظلالها . . وأكماتها . . ونراقب عراجينها الممتلئة بالبلح الأخضر وهو يتلون . . تمهيداً للنضوج . . وعرفنا من كبارنا أن حرارة الشمس هى التى تنضجها . . فلا بأس من تحملها . . وتقف النخيل شامخة عالية فى جماعات كثيرة . . وكأنها أحياء تحمل الخير لأهل القرية . . وعندما تكتز العراجين بالبلح فوق هاماتها فإن النخلات كانت وكأنها جموع أتت مهنئة للأهل حاملة باقات الورد .

فى بداية نضوج البلح . . كان من عادة الصغار أن يناموا مبكرين على غير عادتهم فى أغلب أيام السنة . . فهم يتسابقون فى القيام مبكراً مع أولى شعاعات النهار . . ويسرعون إلى مكان النخيل . . لجمع ما تساقط من تمر ناضج على الأرض . . نتيجة اهتزاز النخلات خلال الليل ، بفعل الرياح . . والغلبة لمن يجمع أكثر منا نحن الأطفال . . نتفاخر بما جمعناه . . وأذكر أننا لم نكن نمد يدنا لنأخذ بلحة واحدة من سباط النخل . . ورغم أنه لا رقيب علينا . . فقد عرفنا من كبارنا أن من يفعل ذلك يكون سارقاً لغير حقه . . وذلك حرام . . فالله هو الرقيب . . ويعاقب من يفعل ذلك الذنب . . أما المتساقط على الأرض

من البلح فإنه مباح لنا التقاطه . . وبعضها نصيب الماعز والخراف وغيرها عندما ترعى خلال النهار بين النخيل . . وأذكر أنني التقطت مرة بلحة من نخلة صغيرة مدفونة سباطها فى الرمل . . وفوجئت بأنها كانت لا تزال لصيقة بالسباطة الخاصة بتلك النخلة الدفينة . . فأسرعت إلى الأم سبيلة باكياً وقصصت لها ما حدث وإن ذلك قد حدث بدون إرادتى . . ولكننى أخاف أن يعاقبنى الله . . وأخذت الأم سبيلة تهدىء من روعى . . ولكننى لم أهدأ إلا بعد أن شرحنا الموقف أمام أصحاب النخلة الدفينة وسامحونى . . وبعد أن أكدوا لى أن الله سيسامحنى ما دام قد سامحنى أصحاب النخلة . . وامتدحوا شجاعتى . . ولم أعد مرة أخرى لمثل ذلك الخطأ . . وكان الدرس . . الدرس الأول الذى هو أساس أمانة النوبى كما أعتقد .

كنت قد نسيت الحائط المائل منشغلا بتأمل نضوج التمر على النخيل . . والتسابق فى الاستيقاظ مبكراً لالتقاط البلح المتساقط بفعل الرياح ليلا . . ولا أعرف ما الذى جعلنى فى ذلك اليوم الذى لا أنساه أن أجرى لاهثاً صوب دارنا تاركاً قرنائى . . ووقفت لاهثاً أمام الأم سبيلة فى دارنا،وكانت متشاغلة بغسيل «زير» الماء وسط فناء الدار فى ظل النخلة التى تتوسطه .. وفى كلمات مليئة بالحنان قالت لى الأم :

— ما شاء الله . . ما شاء الله . . ها أنت يا (فرح) . . أتيت بالسلامة . . وأضافت بعد لحظة .

— حالا سأعد لك طعاماً شهياً ، تأكله بالهناء والشفاء ، لابد وأنك جوعان يا بنى ؟

وبدون مقدمات قلت لها فى لهجة جادة :

– لا أريد . . إلا الحلاوة الطحينية . . نعم . . حلاوة طحينية . . لا غير .

وتركت الأم ما كانت تفعله وأخذت تنظر إلى وكأنها ترانى لأول مرة . . وتساءلت مستنكرة عما قلت :

– وهل الحلاوة أحلى من البلح الذى يملأ نخيلنا وبيوتنا يا فرح ؟

ولكننى صرخت قائلا :

– لا شأن لى بذلك وأريد حلاوة طحينية حالا . . فهمت . . حالا .

وردت منفعلة وبسرعة تقول :

– (عجيبة . . ومن أين لى أن آتيك حالا بما تطلب من حلاوة . . هه ؟) .

ولم أنتظر أية إضافة منها . . وجريت خارجاً من الدار وظللت أجرى . . والأم سبيلة تجرى خلفى فى محاولة للحاق بى وهى تصرخ مستغيثة . . فقد عرفت أننى أجرى نحو الحائط المائل لأحتمى تحته مهدداً بقتل نفسى . . فقد رفض لى طلب . . وأذكر أن جموع أهل النجع تزاحموا يجرون خلفى . . فى صخب ونداءات . . ليوقفونى قبل الوصول إلى الحائط .

– يا فرح . . قف يا فرح . . يا بنى فرح . . فرح .

ولكننى كنت الأسرع فى الوصول إلى الحائط المائل . . ودلفت تحته أحتمى به لاهثاً . . وكأننى فأر صغير هارب من المطاردة .

وتكرر مشهد تجمهر أهل نجعنا الطيبين عند الحائط المائل يرجوننى

لأخرج لهم سالماً . . ولا استجابة منى ، بل ظللت صامتاً فى مكمنى . . ولكن فى هذه المرة حدث ما لم يكن فى الحسبان . . فإن ذلك الرجل (فضل محمود) . . صاح فى الجميع بصوته الآمر قائلا :

— (فلينصرف كل منكم لشأنه . . اتركوه يفعل ما يشاء . . ولا تخضعوا لتهديدات هذا الطفل المدلل . . سيخرج رغماً عن أنفه . . لا استجابة لطلبه بالتهديد . . دلع فارغ . . يا للا) . . ومشى بعيداً وهو يردد كلمات غاضبة لم أتبينها من مكمنى . . والغريب أن يسير الجميع خلفه غاضبين وقد اختلطت كلماتهم الغاضبة . . وحتى الأم سبيلة . . لم تكن لتختلف عنهم عندما حثوها للابتعاد وتركى ، لقد تخلت عنى هى كذلك . . وخلا المكان عند الحائط تماماً . . وأذكر أن صمتاً رهيباً لف المكان . . وخيل إلى أن الحائط المائل ينفرد بى ليقتلنى . . وسرى خوف رهيب فى جسدى . . ولم أشعر إلا وأنا أندفع خارجا من مكمنى . . وأظل أجرى بعيداً وتخيلت الموت يخرج خلفى يطاردنى . . وعلى بعد خطوات توقفت فجأة على صوت دوى هائل .

فقد انهار الحائط المائل فجأة فى تلك اللحظة . . محدثاً دوياً هائلا ومثيراً لتراب كثيف فى مكان الحائط .

تصايح أهل النجع يجرون نحوى . . ويحيطوننى . . ويعانقوننى حامدين الله على نجاتى . . وينتقون الكلمات لتهدئتى :

— سليمة والحمد لله .

— أخد الشر وراح . . ذلك الحائط اللعين .

— لاتخف يافرح . . سنأتيك بالحلاوة الطحينية . . وأى شىء تريده .

أما أمي سبيلة الحنونة . . فقد توسطت الجمع وهي تحتضنني . . وتغرقني بقبلاتها . . وتتلقى التهاني من العشيرة الطيبين على سلامتي من الموت المحقق .

ولا أنس أنني حتى في هذه المرة لم يحرموني من تحقيق مطلبي . . فقد كوفئت بقطعة كبيرة من الحلاوة الطحينية . . بين تهاني أهل نجعنا على سلامتي من الموت تحت الحائط المائل . . أو ربما كانوا يهنئون أنفسهم على نجاتهم . . وخلاصهم من ذلك الحائط . . الذي انهار وانتهى خطره من الطريق الأساسي للقرية .

وبين الحين والآخر كان يحلو لنا أن نذهب نحن الأطفال وندوس عليه ولكن بدون أن ينهانا الكبار عن الاقتراب من ذلك الخطر الذي انتهى بسقوط الحائط المائل .

• • •



الحكاية والذكرى (٢)

اللعب والطفولة

فى أوائل عام ثلاثين . . .

ولم أكن قد بلغت العاشرة من العمر فى ذلك الوقت . . ولم أكن قد غادرت القرية النوبية التى ولدت بها . . وعشت بها كل طفولتى . . وجزءاً كبيراً من باقى حياتى .

كنت أتساءل فى ذهنى الصغير آنذاك . . ترى . . هل توجد أماكن أخرى فى الدنيا غير قريتنا ؟ ! لم أكن لأعرف جواباً لذلك غير أننى سمعت أن هناك مكاناً آخر . . بعيداً . . بعيداً . . اسمه : المدينة . . البندر . . سمعتها فى كلمات متناثرة على شفاه قرنائى من صغار القرية . . كانوا يقولون : إن لهم أقرباء يشتغلون فى المدينة . . البندر . . وأنها ـ المدينة ـ تختلف شكلا عن قريتنا . . بيوتها فوق بعضها . . وطرقها لامعة . . ولا توجد بها نخيل كثيرة . أو بيوت ذات أحواش . . واسعة مثل دورنا . . . و . . . و . . .

إننى أذكر مرات عديدة رأيت فيها أمى (سبيلة) وهى تأخذ كيساً من الورق وتخرج من داخله ورقة (جواب) . . وكانت تقول لى : إنه مرسل لنا من والدى الذى يشتغل فى المدينة . البندر

ومرات تأخذنى معها إلى ذلك البناء الأبيض الأنيق (مكتب البريد) عند طرف القرية . . ومن هناك تعــود وقد تسلمنا لفافة كبيرة (طرد) . . حيث نفضها فى البيت فنجد بها أشياء جديدة كثيرة . . ملابس . . زجاجات عطر . . حلوى . . وغير ذلك . . والأم تتمتم بالدعوات لوالدى الغائب . . مما كان يخثنى على سؤالها . . ومتى يعود والدى ؟ . . ولكنها كانت تجيب بنفس الإجابة التى اعتدتها : (قريباً إن شاء الله) .

كنت أحب الجلوس عند حافة النهر . . النيل . . متأملا صفحته اللامعة الزرقاء بلون السماء وتدغدغ مشاعرى مشاهدة أمواجه المتتابعة فى رتابة محببة . . والفلائك المزركشة الجوانب (لندى) الفاردة لأشرعتها البيضاء . . وهى تروح وتجىء على صفحة النهر . . ويسير بعضها بعيداً حتى تجتاز مرمى البصر . . ويجول بخاطرى . . أن المدينة . . أو البندر . . هناك بعيداً بعد الأفق ، ولكن مالى ومال المدينة . . فحياة القرية ترضينى وتكفينى .

كان أهل النجع الذى ضمنا فى القرية النوبية ، كلهم ودودين . . لا يتوقفون عن مداعبتنا . . بكلمات حلوة كلما التقينا بكبارنا . . غابات النخيل تملأ مساحات القرية . . حيث كانت جموع الأطفال . . وأنا معهم . . نقضى أغلب نهارنا بين النخيل . . فى مثل ذلك الوقت من كل عام . . عندما تمتلىء رووس النخيل بالبلح . . وتحمل بين شواشيها سباطات التمر لتبدو فى أشكال وألوان جميلة . . أحمر . . أصفر . . أخضر . . ليكون منظرها خلاباً . . أخاذاً . . لا يمكن لأحد أن ينساه .

كان كبار أهل القرية دائماً يحذروننا ، نحن الصغار من مكامن الخطر . . فيقولون لنا : (إياكم والاقتراب من النيل . . البحر) . . وكانت حدة التحذيرات ترتفع أيام الفيضانات . . حين يمتلىء مجراه بالماء الطامى . . شديد الجريان نحو الشمال . . حيث كنا نصغى السمع فى خوف ووجل من أصوات ارتطام جوانب الشاطئ التى تتساقط بفعل النحر المستمر . فتحدث دوياً وجلبة . . فالتيار قوى . . والنهر . . البحر . . فى عنفوان هيجانه .

لا تغيب عن ذاكرتى ليالى الصيف وأيامها الشديدة الحرارة . . وهواء النهار المترب الذى يلفح الوجوه بسخانته . . ورياحها الخماسينية الموقدة . . فى مثل تلك الليالى . . ليالى الصيف . . كان كبارنا — يزجروننا لنلتزم بالأسرة (العنقريبات) لا نفارقها منذ غروب الشمس . . قائلين لنا : إن العقارب وكل أنواع الحشرات السامة المؤذية . . كلها تخرج من مكامنها . . باحثة عن أى كائن لتصب السم فى جسده فيموت . . لذلك فقد كان علينا أن نرتدى الأحذية — (ديركوة) فور مفارقتنا للأسرة . . وإلا تعرضنا للخطر .

أما النهار . . فكنا فيه طلقاء . . فقط كانت تعليماتهم تقضى بأن نتجنب دوامات الرياح الترابية . . المسماة بالنوبية (جنيب) . . وهى التى تتكون نتيجة لهبوب الرياح الساخنة المثيرة للدوامات الترابية . . والتى تأتى زاحفة عادة من ناحية الجبل . . عند مكان المقابر . . إلى ناحية النيل . . البحر . . وكانوا يدخلون فى روعنا إن تلك الدوامات الترابية ما هى إلا الموتى أنفسهم يقصدون البحر للارتواء من مائه . . وكان

علينا أن نحمى أنفسنا منهم . . من الموتى . . ولذلك كنا نقف فى مكاننا عند رؤيتها نحمى عيوننا بأكف أيدينا . . ونردد كلمات منغمة حفظناها عن ظهر قلب . . تقول :

يا دوامه . . . يا دوامه (جنيب . . . جنيب)
من معك . . فليكن معك
ومن معنا . . . فليكن معنا
مرى مرى بسلام
واكفينا شر الإيذاء
يا دوامه . . . (جنيب)

كنت فى ذلك اليوم سعيداً وأنا أشارك بالغناء والصياح قرنائى من أطفال القرية . . ويشاركنا بعض الكبار من النساء والرجال الجالسين فى ظلال النخيل قبيل الظهيرة . . كنا نلرب طفلا صغيراً يبدأ فى التخلى على الزحف بيديه . . ويحاول الوقوف منتصباً على قدميه لأول مرة . . فأخذنا نأخذ بيده . . ونشجعه على المشى . . مهللين . . فرحين . . بعثراته فى نقل أرجله بالخطو . . كأنه رجل أفرط فى شرب الخمر . . أو إنسان يخطو فوق أرض ملساء لزجة . . تصايحنا مغنين له مشجعين نقول :

على مهلوه . . . . (تاتيه)
هل قربنا من البيت . . . على مهلوه (تاتيه)
ها هو دارنا . . . . . . على مهلوه (تاتيه)
خطوة أخرى ونصله . . . على مهلوه (تاتيه)
ولابد وأن نصله . . . على مهلوه (تاتيه)

ويستمر الصياح . . والتشجيع والتهليل . . والصغير بدوره يحاول بأقصى جهده . . ويتعثر فى إصرار . . وفى حركات بهلوانية مثيرة للضحك . . وتكون هذه هى أولى خطواته فوق الأرض . . يخطوها طفل النوبة بمعاونة الكبار . . من العشيرة . . لتظل معاونة الجماعة سمة أساسية من سمات حياة أبناء هذه المنطقة . . النوبة .

كانت لعبة الحجلة (الهنداكية) هى إحدى أحب اللعبات عندنا . . نمارسها فى مجموعات فرحة عند كثبان النخيل فى فترة النهار . . وفى الساحات بين البيوت وأمامها فى الليالى المقمرة . . نلعبها متجردين من كل ملابسنا ما عدا السراويل التى تغطى أسفل بطوننا . . متقافزين فى قوة واقتدار على قدم واحدة ممسكين باليد للقدم الأخرى . ولم تكن مباريات الحجلة (الهنداكية) لتخلو من المشاهدين والمشجعين فهى لعبة محبوبة للكبار والصغار على السواء .

تبدأ اللعبة بأن ينقسم اللاعبون من الأطفال والصبية من الذكور والإناث . . ينقسمون إلى فريقين . . كل فريق يضم مجموعة بنفس عدد المجموعة الأخرى . . على أن يكونوا من الأعمار المتقاربة والأجسام والقدرات كذلك .

يتم الاتفاق أولا على رئيس لكل فريق . . ويبدأ تكوين الفريقين بأن يختار كل راغب فى اللعب قريناً له . . وينتحيان جانباً . . ويتسميان بأسماء مستعارة . . كأن يتسمى أحدهما باسم (نخلة) . . والآخر باسم (شجرة) . . ويتقدمان لرئيسى الفريقين يعرضان نفسيهما بالأسماء المستعارة وعلى كل منهما أن يختار إسماً . .

ــ أختار (نخلة) . . أو يقول : أختار (شجرة) .

وبذلك ينضم صاحب الاسم المختار لفريقه . . ونفس الشيء بالنسبة لبقية الراغبين فى اللعب . . حتى يتم تشكيل الفريقين . اللذين يكونان بهذه الطريقة متساويين فى القدرات تقريباً .

المشتركون فى لعبة الحجلة (الهنداكية) . . يخلعون ملابسهم ما عدا السروال . . ويكومونها فوق بعض فى طرف الساحة . . حيث تكون كومة الملابس بمثابة الهدف (الجون) . . وتكون لعبة الحجلة (الهنداكية) بأن تلعب برجل واحدة حيث يمسك كل لاعب بالرجل الأخرى بإحدى يديه .

الفريقان المتنافسان هما فريق للهجوم والآخر للدفاع . . المدفاع عن كومة الملابس (الجون) . . وتبدأ اللعبة بأن يقف فريق منهما بعيداً عن الهدف (الجون) . . والآخر أمامه وظهورهم للهدف . . وعلى الفريق المهاجم أن يختار فرداً من الفريق يطلقون عليه اسم « العريس » . . ومهمة الفريق تنفيذ خطة هجومية لفتح ثغرة للعريس يمكنه من خلالها الوصول إلى كومة الملابس (الهدف) بقدمه التى يتقافز عليها . . وعلى الفريق المدافع منع حدوث ذلك ومحاولة الوصول إلى (العريس) وإيقاعه دون أن يصل إلى الهدف . . ويكفى أن تفلت اليد الممسكة بالرجل حتى يعتبر مهزوماً . . دون أن يقع على الأرض .

وفى الحالتين يخسر الفريق المهاجم (نقطة) الفوز . . بل يكون المدافع هو الحائز على النقطة لتخلصه من عريس المهاجم . . وهكذا . . يتقافز أفراد الفريقين . . ويبدأ الهجوم والدفاع . . كراً وفراً . .

وتماسكاً بالأيدى . . فاللعبة هذه (الحجلة) أو (الهنداكية) . . قد اشتق اسمها من كله . . (يحجل) أو (هنداك) بمعنى (يعرج) ، أو (الأعرج) . . فكلاهما يعتمد على رجل واحدة يتقافز عليها .

على أننى أذكر تلك المرة التى كنا نمارس فيها هذه اللعبة . . وكان الحماس شديداً . . قد تكون المرة الأولى التى أحسست فيها بعبء المسئولية ، عندما خرج كل أفراد الفريق المهاجم من الساحة مهزومين . . وبقيت أنا بمفردى مدافعاً . . وكان زميل طفولتى جمال إمام الوحيد الباقى من الفريق المقابل فى مركز (العريس) .

كان على جمال إمام أن يفعل ما بوسعه من المحاورة للوصول إلى الهدف الذى أدافع عنه . . وله أن يلمس كومة الملابس (الجون) بقدمه لتكون الغلبة لفريقه . . أو أوقعه دون ذلك فتكون الغلبة والفوز لفريقى .

وتأزم الموقف . . وتعالت صيحات المشجعين من كل جانب . . تقدم جمال إمام نحوى متقافزاً بضع خطوات . . وتقدمت أنا بضع خطوات أمام كومة الملابس (الجون) . . وعاد يجرى مبتعداً ، لاستدراجى . . ولكننى أيقنت قصده . . ووقفت فى مكانى بمسافة مناسبة وخلق الهدف . . طلبت منه أن يهاجم — فهذه مهمته — فلم يستجب ومرت لحظات . . وانطلقت الصيحات من المشجعين المحيطين بنا يقولون :

— (الريس يدور على اللبن) .

وذلك معناه أن من واجب (العريس) أن يهاجم . . فقد كان

عدم تقدمه دليلا على إضاعة الوقت . . ليستجمع قواه ويهاجم قافزاً قفزات سريعة قد تمكنه من الإفلات مني ولمس (الجون) . . فقد كان جمال إمام يتميز بالسرعة . . وذلك مكمن قوته في (الحنداكية) . . غير أنني كنت أقوى منه بنية ومراوغة وصلابة . . الأمر الذي يدركه هو أيضاً . . وحانت اللحظة التي أطلق لرجله العنان متقافزاً نحوي بأقصى سرعته . . وفاجأته بالتقدم خطوة واحدة . . مما جعله يرتبك ويصطدم بي مندفعاً . . فتملكت منه وأمكنني استغلال قوة اندفاعه في إيقاعه على الأرض بقوة حتى أنه أصيب بشرخ ، آلمه كثيراً . . وفزت وفاز فريقي . . ودوى التهليل وتهاني المشجعين . . وفي تلك اللحظات أحسست بسعادة غامرة هي سعادة الفوز . . وجمال مذاقه الذي لا حد له . . وكانت تلك هي المرة الأولى كذلك والتي عرفت فيها حلاوة الفوز .

عندما كان يشتد النقاش . . والخلاف . . بيننا نحن الصغار في القرية النوبية . . كان لابد وأن يجيء دور المبارزة لوضع حـــد للخلاف . وكانت لعبة المصارعة ونسميها (مور) . . وفي هذه اللعبة يتجمع الأطفال والصبية . . في الموعد المحدد . . في المكان المعين بعيداً عن أعين الكبار . . ويستدير المشاهدون جلوساً حول الساحة . . وهم في العادة فريقان يشجع كل منهما واحداً من المتصارعين . . ووسط الدائرة يقف المتحديان متجردين من الملابس ما عدا السروال . . وعلى أحدهما أن يبدأ باستثارة الآخر لتبدأ المصارعة . . ويقفان وجهاً لوجه . . وفي لحظة يشير أحدهما إلى كتفيه قائلا ما معناه :

- هذا الكتف مريض . . فصلى هنا على الكتف الآخر .

(إن أوديتان إنا صليجى) .

ويعتبر هذا الاصطلاح بمثابة التحدى . . وعلى الآخر أن يضربه على كتفه بيده . . إشارة إلى بدء التماسك بالأيدى والمصارعة . . حتى يطرح أحدهما الآخر أرضاً . . وغالباً فإن المطروح على الأرض يصر على عدم الاستسلام . . ويقاوم . . بينما لا يكف زميله عن ضربه وهو راقد يحاول النهوض . . ويصل التقاتل أحياناً إلى حد أن يهيل التراب عليه . . بل حشو فمه به . . والآخر يقاوم فى عناد . . وعند الاستسلام على المستسلم أن يردد قائلا :

- فليتحطم جدار القلعة الأثرية (غيغر) على رأسى .

فذلك معناه أنه استسلم للخصم واعترف بأنه الأقوى وأنه على حق . . ولا أذكر أننى عرفت تفسيراً لمعنى تكرار تلك الجملة إلا أنه كان هناك مبنى قديماً . . من القلاع الأثرية . . أو بقايا من جدرانه الضخمة فى النجع المجاور لنجعنا ، كنا نخاف جدرانها المتداعية ولا نقترب وقد يكون ذلك التعبير معناه انتهاء المقاومة عند المهزوم . . (غلب حماره) . . ربما .

الأم (سبيلة) تحذرنى دائماً من الاقتراب من النيل . . البحر . . كما كانت تسميه . . فهو دائماً على استعداد لاصطياد الصغار وقتلهم فى أعماقه . . غير أننى كنت مثل كل قرنائى من صغار نجعنا . . كنت شغوفاً بالسباحة فى النيل ضارباً بتحذيراتها عرض البحر . . على أننا كنا نحرص على ممارسة هوايتنا تلك بعيداً عن رقابة الكبار . . لذلك

فإن الأم سبيلة دأبت على أن تخط لى علاقة مميزة على سطح راق المقدم . . مستخدمة فى ذلك قطعة من الفحم . . والويل لى إذا ما انمحت العلاقة عند عودتى من اللعب . . فذلك معناه أننى سبحت فى النيل . . وأن العلامة قد انمحت بفعل الماء . . لذلك . . فإننى أذكر كيف وأننى كنت أحرص على أخذ قطعة (الفحم) على غفلة منها . . لأعيد خط العلامة ذاتها بعد أن أشبع هوايتى من السباحة . . وأريها العلامة كما هى دليلا على براءتى من تهمة السباحة . . التى كانت تحذرنى منها .

فى النيل كنا نمارس لعبة (أوز الماء) . . (الواك واكية) . . وكلمة (واك واكية) يبدو أنها مأخوذة من نفس صوت أوز الماء عندما تتجمع فى جماعات وتدس رؤوسها فى الماء سابحة لاصطياد غذائها من صغار الأسماك .

وهذه اللعبة تعتمد على مهارة المشاركين فى السباحة والغطس من كل الأطفال والصبية . . وفيها يكون مجموع اللاعبين ضد واحد منهم فى كل جولة . . وتبدأ اللعبة بأن يسبح واحد منهم إلى داخل النهر لمسافة يختارها هو . . بينما يكون الباقون عند الشاطئ . . ثم يتوقف عندها مولياً وجهه نحو المجموعة . . ثم يتأهب للغطس ويصيح بأعلى صوته قائلا للمجموعة :

– الليلة . . الليلة .

ويردون عليه صائحين يقولون :

– واكية . . واكية « صوت أوز الماء » .

وبعد ترديد تلك الصيحات والنداءات لعدة مرات . . يغطس

اللاعب البعيد داخل النهر بقفزة مموهاً بجسده حتى لا يعرف أحد اتجاهه تحت الماء . . وعلى باقى اللاعبين مطاردته غطساً وسباحة فى محاولة للإمساك به ولمس قمة رأسه باليد قبل أن يصل هو ويلمس الشاطئ بيده . . لأنه إذا تمكن من ذلك فإنه يكون الفائز بالجولة . . ومن حقه جولة أخرى مماثلة وهكذا . . أما إذا تمكن أحد اللاعبين من اللحاق به ولمس رأسه داخل الماء فإنه يكون قد خسر الجولة ويحل محله من لمسه . . وتستمر لعبة أوز الماء . . (واك واكية) . . واللاعبون يتقافزون ويسبحون ويغطسون ويصيحون قائلين : (الليلة . . واكية) فى محاكاة لأوز الماء .

ومن الأمور التى تتعلق بذاكرتى منذ تلك الطفولة المبكرة أننى فى إحدى المرات التى كنا نمارس فيها تلك اللعبة . . فى تلك المرة . . خرجنا من الماء عرايا كما ولدتنا أمهاتنا . . ولدهشتنا لم نجد ملابسنا فى مكانها على الشاطئ . . وظهر الخوف والهلع على الوجوه . . ولم ندر ماذا نفعل . . إلى أن قال أحد الأطفال من القرناء . . قال :

ـ لقد لمحت (عم فضل) على الشاطئ عند مكان الملابس ، وأنا أسبح .

واختلطت الصيحات والتعليقات :

ـ لابد وأنه أخذ الملابس ليخيفنا .

ـ يا للمصيبة . . ماذا نفعل ؟

ـ الخوف فى أن يكون قد بلغ كبارنا بأمر سباحتنا فى البحر .

ـ لا . . إنه رجل طيب . . ويحب الصغار .

— إذن ماذا نفعل . . ماذا نفعل ؟

ورأينا أنه لا مفر من الذهاب عند (عم فضل) فى حقله ونحن عرايا كما نحن ونستعطفه لاسترداد ملابسنا .

واستقبلنا (عم فضل) عند حلقه . . مجموعة من الأطفال والصبية العرايا . . والجميع يثرثرون ببكاء مفتعل وخوف . . وصرخ (عم فضل) يأمرنا بالسكوت . . ومرة واحدة سكتنا جميعاً نرمقه بنظرات خائفة . . ودار الحوار عندما سأل عم فضل قائلا :

— ألم نحذركم ألف مرة أن تبتعدوا عن هذا البحر الهائج ؟!

— نعم يا عم فضل . . حصل .

— إذن لماذا هذا التهويا . . .

— (لم يرد أحد) .

— إذن . . اذهبوا إلى ذويكم عرايا لتروا ماذا سيفعلون بكم .

وقاطعناه فى صياح وبكاء واستجداء ليعطينا الملابس وسكتنا جميعاً عندما قال عم فضل :

— عندى شرط لأعطيكم الملابس . . ولن أقول شيئاً لذويكم . . وصحنا مرحبين بأى شرط يريده .

كانت اشتراطاته . . أن نبكر فى الحضور جميعاً عنده فى اليوم التالى من الصباح . . فى حقله . . وأن يكون مع كل من الصبية فأس . . أو أى آلة يمكن أن يمهد بها الأرض . . ويوم كامل من العمل فى حقله . . وأذكر أنه ختم يقول : إن ذلك أفضل من ضياع مجهودكم

فى الفارغ . . ولعبـــات . . الحجلة (الهنداكية) . . وأوز المـــاء (الواك واكية) .

على أننا وافقنا على الشروط بدون أدنى معارضة وأخذنا ملابسنا منه . . وارتديناها فرحين . . بيد أننى لم أجد قطعة « الفحم » التى حرصت على الاحتفاظ بها فى جيب الجلباب . . وأخذتنى الحيرة المشوبة بالخوف . . إذ كيف يمكننى إقناع أمى سبيلة بأننى لم أسبح فى النيل الذى حذرتنى منه . . والتجأت إلى حيلة بأن أذهب إليها باكياً مستجدياً بأن تلك هى آخر مرة أسبح فيها فى النيل . . أعلى أن الأم سبيلة — كما أذكر — لم تستجب لبكائى واستجدائى . . وأخذت تولول — كعادتها — باكية . . نادبة لحظها العاثر يوم أنجبتنى . . وتقرر بأنها سترسل خطاباً شديد اللهجة لوالدى فى المدينة ليأخذنى عنده هناك بعيداً عنها . . وأخذت تردد أنها فشلت فى تربيتى . . ونصحى . . و . . و . . حتى تدخلت إحدى الجارات المسنات لتهدئ من روعها . . وتقدم ضمانتها فى أننى سوف أكون مطيعاً لأوامرها بعد ذلك .

ولكننى لم أنجو من العقاب الذى اعتادت الأم سبيلة تنفيذه عندما أرتكب خطأ جسيماً . . وهو حرمانى من وجبة العشاء . . وأذكر أننى لم أكترث بذلك كثيراً فى تلك الليلة التى استسلمت فيها لنوم عميق من شدة الإرهاق .

* * *



الحكاية والذكرى (٣)

حفنات التـــراب

كان الوقت فى بدايات فصل الصيف . . وفى مثل ذلك الوقت من العام . . فإن المرء كان يحس برائحة خاصة مميزة للجو المحيط به فى تلك البقاع من بلاد النوبة . . أديم الأرض ومظهرها يبدو أكثر دكانة . . بلون رمادى داكن بعض الشىء . . ويختلط ماء النيل بطين الفيضان (الغرين) . . فذلك هو موسم الفيضان . . وهو الوقت الذى تصبح فيه صفحة النيل عاجية اللون . . أصفراً مائلا للاحمرار عند تساقط أشعة الشمس الذهبية .

وفى ذلك الوقت من العام ، تعترى مسحة من الاخضرار الزائد شواشى النخيل . . وحنيها تمتلىء عراجينها بكميات كبيرة من التمر (البلح) . . وتتلون التمرات بألوان شتى من الأصفر والأحمر ، والأخضر . . لتضفى منظراً أخاذاً للنخيل المتمايلة المتراقصة دائماً مع نسمات الهواء .

أذكر أن تلك الفترة من العام كانت أحب الفترات لنا نحن صغار نجعنا فى القرية النوبية . . كنا أكثر نشاطاً وحركة . . وكأنما وقد دب فينا ذلك النشاط والحيوية للنيل الهادر بالفيضان . . فننشط فى ممارسة

لعباتنا المختلفة . . على مرأى من كبارنا . . والذين يقلقون من مطاردتنا . . وتحذيرنا من أخطار النشاط الزائد . . فهم يقضون كل نهارهم فى الحقول والعناية بالنخيل . . ويعودون متعبين إلى الدور مع غروب شمس اليوم . . ويستلقون متعبين على ظهورهم فى الأفنية الواسعة لدورهم .

أما نحن الأطفال والصبية . . فلم نكن نرجز وسعاً فى اللعب والصياح دون رادع أمام الساحات الممتدة أمام البيوت . . فالجهد ممتد بالنسبة لنا . . ما دامت بطوننا ممتلئة بالبلح الذى نكون قد ازدرناه طول النهار بين أكمات النخيل .

(عم شعراوى) . . رجل مسن من رجال نجعنا المرموقين . . يستلقى على ظهره ويتوسد أكف يده فى فناء داره . . يزامله فى ذلك صديقه وزميل شقائه فى الزراعة (عم سلوم) . . وعندما أزعجهم صياحنا ولعبنا أمام الدار . . فى الساحة الواسعة . . تحت ضوء القمر . . ضرب « عم شعراوى » كفاً بكف فى استياء . . فقد علا صياحنا وتحت نردد غناءاً يقول :

تعـليم باتا شرباتا . . .
التعـليم مش مـرش . . .
مين حيقول خمستاشر . . .
أنا بقـول خمستاشر . . .
بس إزاى خمستاشر . . .
كده كده خمستاشر . . .
عـدو معـايا خمستاشر . . .

ومع كل فقرة بها كلمة (خمستاشر) نصفق بأيدينا صفقات لتكون مجموع الصفقات (خمسة عشر) .

ونعود ونكرر الغناء والصياح بما قلناه . . بينما تتماسك أيدينا . . ونخطو خطوات مع نغمة الغناء فى صفوف . . مقلدين خطوات الجنود والعساكر فى صفوفهم وحشيتهم .

قال (عم شعراوى) لزميله (عم سلوم) المستلقى بجانبه . . قال :

– هوى . . سلوم . . أتسمع صياح هؤلاء الأولاد الشياطين ؟!! ألا يتعبون ؟.. لقد أصبحنا فى نصف الليل وهم لا يكلون أبداً .

فأجابه (سلوم) وهو يغالب النوم قائلا :

– هبه . . هكذا حال الأطفال يا شعراوى .

وظل شعراوى على رقدته . . يرسل نظرات حالمة للسماء المزين بمجموعات النجوم المتلألئة . . والقمر البادى على البعد . . وأخذ يروى حكاية (جحا والأطفال) كمن يحادث سلوم المستغرق فى النوم . . قال : « يقولون : إن (جحا) تساءل مرة عن سبب واحد يبرز لهؤلاء الأطفال أحقيتهم فى الطعام الذى يعطى لهم . . وما هو المقابل من الجهد الذى يبذله هؤلاء الشياطين ؟ ! ! وقرر (جحا) أن يتأكد بنفسه من ذلك . . وخرج يوماً منذ الصباح الباكر للأطفال يشاركهم ما يفعلون . . وأخذ يتقافز معهم هنا وهناك . . فتسلق معهم هضبة عالية من الرمال . . وتزحلق فوقها معهم . . جرى معهم نحو النيل وسبح فيه كما يفعلون . . طارد معهم بعض الكلاب يقذفونها بالحجارة بدون سبب .

ولم يقو (جحا) على الاستمرار فى بذل الجهد . . فانسلخ من بين الأطفال عائداً . . ومرهقاً . . ينادى فى القوم : بأنه تأكد منذ ذلك اليوم أن الأطفال والصبية يبذلون جهداً خارقاً وكبيراً . . وأنهم يستحقون أضعاف ما يقدم لهم من طعام .

وضحك عم شعراوى وهو لا يزال فى رقدته . . كأنه هو ذاته يسمع تلك الحكاية لأول مرة . . ولم يشاركه (سلوم) فى الضحك حيث كان قد غاب فى نوم عميق .

كانت سحابات داكنة بدأت تزحف نحو مكان القمر فى كبد السماء . . وتكاثرت السحابات شيئاً فشيئاً حتى اختفى تماماً . . وبدت نجمات قليلة تبرق بعيداً بين الفينة والأخرى دون أى أثر على الظلام الهابط معتماً على الساحة . . وفى مثل ذلك الجو . تحلو لعبة — (رمى العظمة) . . (غسركادية) .

كنت بين الأطفال والصبية . . نلعب تلك اللعبة التى تناسب فترة الظلام . . حيث يصعب رؤية الأشياء الملقاء على الأرض وانقسمنا إلى فريقين متساويين . . وأمسك رئيس الفريق بعظمة بيضاء بيده وتأكدنا من شكلها المميز . . ثم تأهب لقذفها فى جوف الظلام وهو يصيح قائلا :

— يا غراب . . يا غراب . . (كوغتوه) .

فنتصايح بالرد قائلين :

— طير يا غراب . . طير يا غراب . . (شليلتوه) .

يقذف بالعظمة . . وفى لحظة يكون أفراد الفريقين منتشرين فى

الساحة المظلمة بحثاً عن العظمة المميزة ، وعلى كل واحد من المشتركين فى اللعبة أن يتمكن من الحصول عليها وإعادتها إلى المكان المحدد فيكون فريقه فائزاً بالجولة . . ومن الضرورى أن يوصلها إلى المكان ليكسب الجولة دون أن يمسك به أحد من الفريق الآخر . . وذلك يستدعى تعاون أفراد الفريق الواحد فى توصيل العظمة . . كما يمكن لأفراد الفريق المنافس اغتصاب العظمة من الآخر(*) .

وعدت فى تلك الليلة إلى دارنا مجهداً من فرط ما بذلته من جهد فى لعبات . . (تعليم باتا) . . و (رمى العظمة) . . مما كان يستدعى استيقاظى فى وقت متأخر من اليوم التالى . . ولكن حدث عكس ما أردت . . فى هذه المرة .

استيقظت الأم سبيلة فى وقت مبكر من الصباح . . ولم أكن قد أخذت قسطاً كافياً من النوم . . ووجدتها توقظنى عنوة . . مع أول تباشير الصباح المبكر . . وهناك خلف التلال الجيرية التى تحد القرية . . كانت الشمس تتأهب للظهور . . وأخذ يملأ سماء القرية بضوءه شيئاً فشيئاً . . وامتلأت كل أرجائها بشعاع الشمس المائل إلى الاحمرار المحبب .

بدأت الأم سبيلة يوم ذاك بنشاط ملحوظ . . أخذت تدخل وتخرج من فرقة لأخرى من غرف دارنا المتعددة . . ومن غرفة إعداد الطعام (ديوين نوغ) . . خرجت تحمل كوبين من الشاى الساخن المخلوط بلبن الماعز . . فالمعروف فى النوبة أن لبن الماعز لا يؤثر فى

(*) ملاحظة : تشبه اللعبة فى أدائها لعبة (الرجبى) المعروفة .

مذاق الشاى أو رائحته . . خفيف . . دسامة أقل . . يكسب الشاى لوناً عاجياً جميلا .

وجلست الأم سبيلة عند حافة السرير الذى أرقد عليه (العنقريب) وكنت لا أزال أقاوم النعاس . . هزتنى وداعبتنى فى حنان . . وقدمت لى الشاى وأخذت منه رشفات اللذيذة ، نشرت الحيوية فى كل جسدى وبعد لحظات كنت فى كل استيقاظى وارتديت ملابسى المنتقاة كما أرادت الأم سبيلة . . وتركت الدار خارجاً معها إلى حيث لا أعرف . . فقد كان على أن أطيع أوامرها واتبعها بدون اعتراض .

سرنا سوياً مبتعدين عن الدار . . الأم سبيلة تمسكنى من يدى وتشدنى بجانبها سائرة . . إلى ناحية الشرق . . نحو التلال هناك بعيداً . . كانت صامتة . . ندب معاً على الأرض بخطواتنا دون كلمة . . كانت مسحة من الجدية والصرامة على وجهها . . ولم أتكلم . . بل أسير . . رغم تلك التساؤلات الكثيرة التى تزاحمت فى خاطرى . . (ترى ما هو سبب سيرنا إلى ناحية التلال فى ذلك الوقت المبكر من النهار ؟!) . . لم أكن لأعرف . . ولكن ، كان على أن أتبعها .

توقفنا قليلا عند مشارف التلال . . كان النجع الذى به دارنا يبدو بعيداً من هناك . . وعندها خرجت الأم سبيلة عن صمتها . . وقالت فى لهجة آمرة :

— هذه هى مدافن أجدادنا وآبائنا من الموتى . . وعليك أن تقرأ الفاتحة على أرواحهم . . هل فهمت ؟ ! .

وأومأت برأسى موافقاً . . وسألتنى قائلة :

— هل تحفظ الفاتحة جيداً ؟ ! .

لم أرد فأضافت هي قائلة :

— طبعاً . تحفظها فأنت فى الكتاب منذ مدة طويلة .

ابتسمت . . ووقفنا عند المقابر نقرأ الفاتحة بصوت مسموع رافعين أكفنا للسماء فى ضراعة ..

وسرنا بين المقابر فى صمت وإحساس بالرهبة من سكانها الموتى . . خطونا خطواتنا فى حذر . تحسسنا مواقع أقدامنا . . وعند إحدى المقابر أشارت الأم سبيلة تقول لى :

— ذلك هو قبر جدك رحمه الله . . والدى . . الفاتحة له . . وعدنا نقرأ الفاتحة فى ضراعة حتى فرغنا منه لتقول لى الأم سبيلة ونحن نستأنف السير بين المقابر :

— أتذكر يا ابنى (فرح) . . أننا قمنا بزيارة ذلك القبر يوم العيد الماضى ؟ . . أتذكر ؟ ! .

وأضافت قائلة دون انتظار لجواب منى :

— فى الزيارة . . وضعنا الجريد الأخضر على القبر . . وبذرنا الحب فوقه وحوله . . وملأنا ذلك الوعاء الفخارى بالماء . . الوعاء الذى رأيته موضوعاً عند مكان رأس المرحوم ، خلف الحجر الموضوع (شاهد) وانفرجت أسارير وجهى وأنا أضيف قائلا للأم :

— نعم يا أماه .. إننى أتذكر ذلك جيداً . . وأتذكر أن كل من حولنا كانوا يفعلون نفس الشيء بالنسبة لقبور الموتى . . حتى أن حباً

كثيراً بعثر على الأرض . . كما رأيت الطيور وهي تتكاثر فوق المقابر . . وتلتقط الحب وتستقي من المـاء عندما غادرنا المكان عائدين .

وأذكر أن الأم سبيلة استمعت إلى حديثي في عناية ، ثم تنهدت قبل أن تقول في كلمات هامسة :

— نعم . . نعم . . ذلك ما يدل على أن هناك خيطاً رفيعاً جـداً بين الحياة والموت . . سكون الموت . . ثم ضجيج الحياة . . . سبحانك يارب .

ولا أظنني قد أدركت ما كانت تعنيه الأم سبيلة عن الخيط الرفيع والحياة والموت . . فقد كنت لا أزال صغيراً حتى أفهم مثل تلك الفلسفات .

استمر سيرنا حتى بلغنا مكاناً به بناء صغير . . ذات قبة مستديرة . . عند أقصى طرف مكان المقابر . . كان البناء والقبة تبدوان بلون أبيض ناصع . . أشاع رهبة خفية في نفسي . . وكان حول البنـاء زحام من الناس . . نساءاً ورجالا وصغاراً . . كلهم من أهالي القرية . . وأغلبهم من نجعنا . . كانوا يثرثرون في خشوع . . فقد كان ذلك هو مقام الشيخ درويش . . وراحت الأم سبيلة تلقي السلامات عليهم . . ويردون عليها بمثلها . . الجميع يعملون في همة ونشاط . . ولا يكفون عن ترديد الدعوات . . ونداءات التودد للشيخ درويش ساكن ذلك المقام المهيب . . هناك جماعة منهم يعملون في سلخ وتقطيع لحم خروف مذبوح لتوه . . بعض النسوة يعملن في إعداد أقراص رقيقة من الخبز . . يعدونها من عجينة الخميرة (شادى) . . ينضجونها بفرشها

على صفائح مستديرة من الحديد الساخن . . ولا تتوقفن عن الثرثرة ذاكرات ومعددات لبركات الشيخ درويش التى حلت على الناس .

تقدم منا رجل وعلى وجهه ابتسامة حلوة . . سلم على الأم سبيلة فى ترحاب . . كان واضحاً أنه صاحب ذلك الحفل . . إنه صاحب (النذر) الذى يوفونه فى ذلك اليوم . . ودار حديث سريع بينه وبين الأم سبيلة عندما سألته قائلة :

— وهل هنا من نذر نذراً جديداً للشيخ درويش ؟ ! !

رد الرجل يقول :

— نعم يا سبيلة . . إن (صالح كاليه) قد نذر نذرا يوفيه عندما يعود أخوه من بلاد بره بالسلامة .

وردت الأم بسرعة :

— ما شاء الله . . ما شاء الله .

ثم أشار الرجل إلى رجل يقص شعر طفل جلسه أمامه جالساً القرفصاء . . رمقته أنا بسرعة فوجدته (جمال إمام) قرين طفولتى بالنجع ، كان هو الذى يجلس أمام الحلاق مسلماً له رأسه . . وسمعوا الرجل يقول لأمى سبيلة :

— إنه يحلق ليترك له خصلة شعر (كوكى) . . نذراً للشيخ درويش . . على أن تحلق الخصلة . . إن شاء الله بعد أن تحل بركة الشيخ وينال أهله مرادهم .

ورددت الأم بسرعة تقول :

ما شاء الله . . ما شاء الله .

وبدون مقدمات وجدتها تجذبني بشدة من يدى . . وتجلسني بجوار الحلاق وتقول له فى لهجة آمرة :

ــ قص له شعره أيضاً ولك الحلاوة . . واترك له خصلة شعر جميلة وسط رأسه . . نذراً لمقام الشيخ درويش .

وبسرعة استدارت تولى وجهها نحو مقام الشيخ وهى تردد قائلة وكأنها تخاطبه :

ــ لقد نذرنا لك ياسيدنا الشيخ . . نذراً وعهداً . . أن نذبح بجوار مقامك ذبيحة كبيرة . . بعد أن تحل بركتك ويعود زوجى . . والد فرح . . من غيابه الطويل فى المدينة . . سالماً . . غانماً . . آمين . . آمين . . .

وارتفعت الأصوات من حولنا تردد :

ــ ما شاء الله . . إن شاء الله . . إن شاء الله . . ووه . . سبيلة .

وجلست القرفصاء بدورى أنتظر حتى ينتهى الرجل من عمل خصلة الشعر لصديقى جمال إمام . . وأخذت أراقبه عن كثب وهو مستسلم برأسه للرجل الحلاق . . واستسلمت مثله . . بينما وقف هو يتلقى التهانى بخصلة الشعر ، ويصلح من واضع طاقيته فوقها فى إتقان وحرص . . حتى تم عمل الخصلة لى كذلك .

جلس المجتمعون حول قصاع الأكل فى جلبة . . كانت مليئة بالخبز الغارق فى الحساء . . وعليها قطع شهية من اللحم الناضح . . الرجال حول قصاعهم . . والنساء مثلهم . . وصاحبى جمال إمام

يندس بين الرجال ويشاركهم الطعام . . أما أنا فقد حرصت الأم سبيلة على أن تجلسني بجوارها مع النساء . . وذلك لتضمن أن أتناول قسطاً وافراً من أكل الشيخ درويش . . فهو مبروك . . وراحت تحشى على التهام قطع اللحم الشهية التي تنتقيها لى بنفسها .

النساء فى ثرثرة مستمرة حول القصاع . . تكاد أصواتهن ، وضحكاتهن تطغى على ثرثرة الرجال . . وكانت فتاة قريتنا الجميلة (صليحة إمام) تجلس على مقربة منى . . لا تشاركهن الحديث — إلا بابتسامات خجلة . . عندما داعبتها سيدة من الموجودات فى سخرية تقول لها :

— وأنت ياصليحة إمام ! .. ألم تنذرى شيئاً لمقام الشيخ درويش ؟ ألا تريد أن يأتيك عريسك بسرعة من المدينة .. البندر .. يا بنت ؟ !

وانفلتت ضحكات متناثرة من السيدات . . وأثارت إحدى قريبات صليحة ذلك السؤال . . وقالت وهى تلوح بيدها للسيدة السائلة :

— هوى . . ومالك أنت وصليحة إمام ؟ . .هيه ؟ . . تراك تتمنين أنت أيضاً أن يأتيك عريس من المدينة وينتزعك من زوجك المزارع الكحيان (علوبى) . . ها . . ؟ !

وازدادت الضحكات من النسوة . . وقالت أخرى معلقة ساخرة :

— ياريت . . لو أن الأمر بيدها ، أو بيدنا ، لاستبدلنا جميعاً أزواجنا بآخرين من المدينة .

وضج المكان بالضحك . . حتى أن بعضاً من النساء الجالسات حول القصاع المجاورة تجاوبن بالضحك .

إلا أن واحدة فقط كانت تجلس قبالتنا حول القصعة ، لم تتجاوب كانت امرأة حادة الملامح . . تبدو وكأنها عابسة دائماً . . عرفتها من أول نظرة . . فهى تلك المرأة (الأعزب) كما عرفتنى صليحة إمام فى إحدى المرات . . وتذكرت أنها قالت لى : إنها مطلقة من زوجها . ولذلك فهى ــ المرأة ــ لا تعلق على جبهتها ذلك المثلث المصنوع من الذهب (قصة الرحمن) . . مما يدل على أنها أعزب . . وكانت صليحة إمام عرفتنى بأن التى تترك خصلة شعر (جصة) على جبهتها فذلك دليل على أنها فتاة فى سن الزواج . . مثلها . . والمتزوجة تحتفظ بالمثلث الذهبي (قصة الرحمن) على جبهتها .. أما الأعزب أو الأرمل .. فإنها تترك جبهتها عارية إلا من دبلة مستديرة من الذهب تعلق عليها (قصة الرحمن) إذا ما تزوجت . . وأذكر فيما أذكر أن الفتاة صليحة إمام التى رأيتها وهى ترقب خلسة مجلس الرجال . . كانت تبحث بينهم عن شخص معين . . كان هو الشاب (إدريس) . . شاب مفتول العضلات . . يشمر دائماً عن ساعديه . . رأيته يبادلها النظرات من حيث هو بين الرجال . . فقد كانت تربطهما علاقة ما . . .

كان (إدريس) يلفت نظرنا نحن الصغار بمظهره الفاره . . كنا نراقبه فى إعجاب وهو يعمل فى حقله بقوة فى نجعنا . . وهو ــ إدريس ــ كان دائماً يردد الأغنيات . . . وأذكر أنه كان لا يتوقف عن بث شوقه فى أغنياته المليئة بالحنان والصوت الشجي . . وسمعته مرات يذكر اسم صليحة فى بعض الأغنيات . . والتى كان يرددها وهو يرقد على جنبه متوسداً ذراعه القوية . . هناك فى الظل الظليل للشجرة المورقة قريباً من ساقية النجع .

كنا نحن الصغار نجلس مستمعين على مقربة منه . . دون أن يبالى هو بوجودنا . . كان يغنى قائلا فى صوت شجى :

وقد عجز الحكيم عن علاجى
ولكنى أعرف دائى ودوائى
إنها تلك الفتاة الجميلة
هى كالكوكب تنير حيثما حلت
إن دارها مقابل لدار شعراوى « يقصد دار صليحة »
فأين لى بجوارها حتى أشفى
فهى دائى ودوائى . . . .
. . . . وسمرانى

* * *

على أنى أذكر أنه كان يربطنى نوع خاص من الصداقة ، والألفة بصليحة إمام . . بحكم ملاصقة دارنا بدارهم . . وفى مواجهة دار (عم شعراوى) . . الرجل المسن . . المرموق فى نجعنا . . وكذلك صداقتى بجمال إمام شقيق صليحة . . الأمر الذى كان يحدونى للتواجد كثيراً معهم فى دارهم .

كانت الفتاة صليحة إمام كثيراً ما تجلسنى بجوارها فى فناء الدار وتدللنى بكلمات حلوة . . وكثيراً ما كانت تطلب منى أن أعيد على مسامعها ما أكون قد سمعته من مقاطع أغنيات الشاب إدريس .. وأذكر أن ذلك كان يطربها كثيراً . . أو ربما كانت تتصنع ذلك . . ولكن

ذلك كان يعجبنى على أى حال . . فأمسك بوعاء نحاسى أنقر عليه بأصابعى وأترك لحنجرتى العناق بالغناء . . كما يغنى إدريس مقلداً له .

كانت صليحة إمام تسألنى دائماً عن أخباره . . . الأمر الذى جعلنى – من حيث لا أدرى – أتصور أنها هى وإدريس متناسبان لأن يتزوجا . . كان ذلك إحساساً بداخلى . . رغم أننى كنت قد سمعت فى أحاديث الكبار ولفظهم : أن هناك رجلا آخر (عريس) لصليحة إمام . . وأنه يعمل فى المدينة . . البندر . . وقيل : إنه ينتظر حضوره بين الحين والآخر ليعقد زواجه منها . . ولكن ما لى وكل ذلك ! .

انتهت وليمة النذر عند مقام الشيخ درويش . . عندما انبرى رجل ضخم الجثة . . هفهاف الملابس . . على وجهه لحية بيضاء كبيرة . . انبرى يرفع كفيه للسماء مردداً الدعوات بصوت جهورى . . والجميع يرددون (آمين . . آمين) . . بين كل مقطع من الدعوات . . حتى ازدحمت الكلمات والدعوات والتبركات فى المكان . . وتصاعدت فى الجو وكأنها (بالونات) أطلقت فى الهواء فى ساحة من مناسبات الأعياد القومية .

كان النهار قد بدأ فى الانتصاف . . ولا زال الجمع مشغولا فى التبرك لمقام الشيخ بعد أن ملئوا بطونهم تماماً . . أما نحن الصغار فقد انصرفنا عنهم إلى المرتفعات والجبال القريبة من المكان . . ورحنا نتسلقها فى صخب . . ونصعد ونهبط مرات فى سباق ولعب . . حتى كنا عند مغارة فى جوف الجبل . . فتحة ضيقة على شكل فم أسد ، ولكنها واسعة من الداخل . . وكنا نعرفها جيداً . . فهى المغارة التى

عرفناها باسم مغارة « لميلة » . . فقد قصدناها كثيراً قبل تلك المرة فى مناسبات الأعياد . . عيد الفطر . . وعيد الأضحى ، حين كنا نقصدها جموع الأطفال والصبية بملابس الأعياد الجديدة . . بألوانها المختلفة . . حمراء . . صفراء . . خضراء . . بنات وبنين . . وكأننا فى موكب (كرنفال) صاخب . . كثيرنا يمسك بيده مزامير صغيرة . . نصفر بها نغمات متقطعة . . مختلطة . . والبعض يردد على نغماتها أغنية طفولية معروفة تقول :

حجيجة	يعقـــوب	يا ذات خصـــلة الشعر
حجيجة	يعقـــوب	يا ذات الأهداب الطويلة

وكانت تلك المواكب كلها تقصد مغارة لميلة كجزء أساسى فى احتفالات الأطفال بالأعياد . . وفى داخل المغارة يتصايح الصغار فرحين . . متقافزين . . يضربون بأرجلهم الصغيرة أرض المغارة الجوفاء . . فتحدث أصواتاً كأنها أصوات طبول حقيقية . . ويكون الغناء قائلين :

لميله . . . يا لميله . . .
يا واحــة جمــيلة
يا نغمــة محبــوبة
دعينا نسعد . . دعينا نرقص
يا لميله . . . يا لميله . . . يا لميله
« هريبا نغ . . . هيريبا نغ »

ويستمر التقافز والرقص لفترة طويلة لا نشعر بها . . كما حدث فى تلك المرة بعد احتفال نذر الشيخ درويش . . فقد وجدنا النهار وقد بدأ يستسلم لنهايته عندما خرجنا من مغارة « لميلة » . . وضوء الشمس ينزلق رويداً رويداً خلف التلال من ناحية الغروب . . وعلى البعد يسعى شراذم العائدين إلى دورهم . . جماعات وأفراداً . . وتباطأنا فى السير أنا وصديقى جمال إمام فى طريق عودتنا إلى نجعنا . . وقربنا من مدخل أكمات النخيل عند النجع ، حيث توقفنا عندما أخذ جمال يتحسس جيوب جلبابه بكلتا يديه . . ثم يدس يده فى الجيب . . ويخرج لفافة صغيرة من القماش . . ويرينى إياها مغلقة وهو يقول :

— هذه اللفافة . . تحتوى على حفنات من تراب مقام الشيخ درويش .

سألته أقول :

— ومالك بها ؟!

قال مفتعلا الدهشة :

— مالى بها ؟ . . غريبة . . ألا تعرف يا (فرح) أن تراب الشيخ درويش شىء مبروك . . هيه ؟ . .

لم أرد على سؤاله . . فأخذ يشرح لى قائلا :

— إن قليلا من هذا التراب يكفى لحراسة نخلة كاملة . . ويمنع من يحاول سرقة ثمراتها منعاً كاملا .

سألته مندهشاً أقول :

— وكيف يكون ذلك ؟ ! !

قال :

ـ حفنات منها تعلق فى جذع النخلة فى لفافة . . ولها مفعولها الأكيد فى منع الأشرار ، واللصوص . . بل وإيذائهم .

وأدهشنى ما قاله . . فسألته معاتباً . . مستعطفاً :

ـ إذن لماذا لم تخبرنى . . يا جمال . . بذلك هناك عند مقام الشيخ ؟!

وأضفت أقول :

ـ كنت سأجلب حفنات من التراب مثلك .

وكأنما قد خشى جمال إمام من أن أشاركه فى حفناته . . فجرى بعيداً . . مارقاً بين أكمات النخيل إلى دارهم . . وأصبحت بمفردى .

كان الغروب قد بدأ يفرض نفسه على الكون . . وبدأت ظلال الظلام تزحف على سماء القرية ، وتغلفها بغلالة كثيفة .

سرت مهموماً على مهل . . فلم يكن من السهل أن أعود بمفردى إلى الجبل لأستجلب حفنات من تراب الشيخ درويش . . سرت حتى كنت عند نخلتنا (بدرية) . . تلك النخلة الوحيدة التى بدأت بلحاتها فى النضوج قبل غيرها . . وقد يكون ذلك هو سبب تسميتها ببدرية . . ووقفت أتأمل عراجينها المكتنزة بالتمر . . والتى تغرى بالسرقة . . وجال بخلدى ما سمعته من صديقى جمال إمام عن حفنات تراب مقام الشيخ درويش . . وآثرها فى الحفاظ على محاصيل النخيل . . وخطرت لى فكرة بدأت أنفذها على الفور . . .

تلفت يميناً وشمالا .. تأكدت من خلو المكان من أى متلصص . . واخذت حفنات من التراب . . ووضعتها فى لفافات صغيرة علقتها فى حرص على جذوع نخلتنا بدرية . . وهمست قائلا :

— ليس هناك من سيعرف أن حفنات التراب هذه ليست من عند مقام الشيخ . لا أحد .

وترددت متسائلا ومجاوباً :

— وجمال إمام ؟ . . لا . . إننى سأخبره بأننى عدت إلى مقام الشيخ واستجلبت الحفنات بعد أن تركنى . . وشعرت براحة واطمئنان

وهناك فى دارنا . . استلقيت على الفراش واستسلمت لنوم عميق . . وحفنات التراب تحرس نخلتنا (بدرية) .

* * *



الحكاية والذكرى (٤)

تمـــر النخيـــل

كانت ظلال النخيل هي الملاذ والخلاص من الحرارة الشديدة ، والشمس الحارة لأهل القرية النوبية . . فى ظلالها الظليلة تكون التجمعات هرباً من قيظ الحرارة . . وطائر القمرى بوداعته وشكله الانسيابي الهادئ أحب الطيور إلى نفس الإنسان النوبي . . وهو الذى بدوره كأنه يستكن على رؤوس النخيل ، وبين جريدها المورق فى أيام القيظ والحر مغرداً . وقد شبهت الفتاة الجميلة الوديعة بطائر القمرى (دوغيه) فى الأغنيات النوبية . . وأحبوا صوت ذلك الطائر حباً خاصاً . . وطربوا بصوته الرتيب وأحبوه وقالوا : إنه يغنى أجمل ما يكون بصوته المنغم الدافئ . . بل إنه يغنى بالفعل كلاماً ذات معنى فإنه يقول :

غو . . . غو . . . غو . . . غو
هنـــاك ضيوف قـــادمون
فجهـــزوا الـــدقيق النـــاعم
واســـتعدوا بالأكل الفـــاخر
فالخـــبر على قدوم الحـــاضرين
غو . . . غو . . . غو . . . غو

ولم يكتف الأهل والعشيرة بظلال النخيل ملاذاً، بل كانت النخيل تظل تعطيهم من ثمارها أكلا طيباً منذ ظهور ثمراتها الخضراء (دفية) .. وكان هناك نوع لا يؤكل نوعه إلا وهو لا يزال أخضراً ولم ينضج بعد . . يسمونه (الذى يؤكل أخضر) . . (دسى كب) كان حلو المذاق . . ثم تأتى فترة ما قبل النضوج الكامل (نولو) ثم النضوج لشتى الأنواع . . تلك الأمور التى جعلتهم لصيقين بظلال النخيل . . يستظلون بظلها . . ويقتاتون بثمارها الحلوة لفترة طويلة من أيام العام . . حتى أن الأهل والعشيرة كثيراً ما كانوا يكتفون بوجبة العشاء دون غيرها أيام نضوج البلح ، من كثرة ما يكونون قد أكلوا من أشهى التمر !

فى تلك الظلال ، وظلال حوائط البيوت (الآتية) كان يحلو لنا أن نمارس لعباتنا المناسبة . . فلعبة شرائح الجريد (التاب) كانت أحبها لنا . . وفيها يتم شطر الجريد إلى شرائح . . ثم تقطيعها إلى قطع بطول ذراع اليد . . واللعبة تلعب بستة قطع منها . . تضاهى (الزهر) فى لعبة (الطاولة) المعروفة .

يقوم لاعب (التاب) برمى شرائح الجريد الستة على الأرض جلوساً . . من ارتفاع الرأس وهو جالس . . وتعد الجوانب البيضاء (بطن الشريحة) أو الخضراء منها . . وتحتسب الخضراء فقط دون البيضاء لتحريك ونقل قطع الحجر التى تكون فى الحفرات على الأرض على طريقة (السيجة) . . وطبقاً لعدد ما يكون من الجوانب الخضراء فى كل رمية لشرائح الجريد (التاب) . . وإذا ما جاءت الشرائح الستة بجانبها الأخضر كان بمثابة (الدش) فى لعبة (الطاولة) . . ويحرك

بموجبه ستة حفر لقطعة الحجر الخاص باللاعب . . وكانت تردد أغنية التاب عادة طوال اللعب سواء من اللاعبين أو المشاهدين وتقول الأغنية :

سته ستوت . . . ياللا يا (تاب)
ولد ولود . . . ياللا يا (تاب)
أنا أريـــد الستة
أنا أريـــد الولـــد
ولـــداً اسمه ولـــد
(فطومه) هى البنت
الولد هـــو الولـــد
فطـــومه هى ذئبـــه
سته ستوت . . . ولد ولود . . . ياللا يا (تاب)

* * *

على أن لعبة (التاب) هذه كانت لعبة الذين هم فى سن الصبا فأكبر . . أما من هم أصغر فكانت لهم لعباتهم المناسبة . . وكنا نفضل لعبة (ساقية الهواء) . . « كاران كيجى » . . واللعبة هذه مأخوذة عكس طفول من الساقية النوبية ذات الطابع الخاص . . ويقال عنها : إنها آلة موسيقية لرفع المياه . . والسبب فى ذلك . . الأزيز المتواصل والنغمة التى تحدثها الساقية خلال دورانها . . الأمر الذى كان محبباً لنا نحن الأطفال والصبية بصفة خاصة . . لذلك فإننا أخذنا من فكرة الساقية . . وأزيزها لعبة . . ساقية الهواء . . (كران كيجى) .

كانت ظلال النخيل ظليلة فى هجير ذلك اليوم . . مما يغرى بممارسة لعبة ساقية الهواء . . فاتفقنا على إقامتها فى إحدى الظلال الوارفة . . واخترنا إحدى أشجار (السنط) . . ذلك النوع من الأشجار التى تقف شامخة عند شاطئ النهر . . وتتميز بالخشب ذات القوام الصلب . . والشوك المدبب الحاد . شجرة تفرز صمغاً نأخذه . . لنخلطه مع (الهباب) الأسود الذى يلتصق بالحلل وأوانى الطبخ . . ونصنع منه الحبر فى (الكتاب) .

قمنا بقطع فرعين مناسبين من تلك الشجرة . . نظفناها من الشوك والشوائب . . وما علق فيها من الصمغ . . كانت كل قطعة منهما بطول مترين تقريباً . . وثقبنا واحدة من الوسط ثقباً مناسباً . . . أما القطعة الأخرى فقد جعلنا طرفها مدبباً ، بالقدر المناسب لدخولها فى الثقب . . وغرسنا القطعة المدببة الطرف فى ظل النخلة . . وطرفها المدبب إلى أعلى . . بحيث ترتكز عليها القطعة المثقوبة من الوسط .

عالجنا مكان الثقب المركب به القطعة بمادة لزجة استجلبناها من إفرازات أنواع من النباتات المعروفة . . وذلك مما يساعد على نعومة الطرف المدبب . . وسهولة دوران قطعة الخشب العلوية حول القطعة المثبتة فى الأرض .

وعند الدوران يحدث الصوت الذى يشبه صوت الساقية الحقيقية . . نغماً متصلا . . وأزيزاً ألفناه من السواقى .

تعلقنا أنا وصديقى جمال إمام كل فى طرف من أطراف قطعة الخشب العلوية . . وتبادل القرناء من الأطفال والصبية فى دفع الخشبة

العلوية تلك لتدور بنا على حول المثبتة على الأرض . . ودارت محدثة صوتاً ونغماً محبباً يحاكي صوت الساقية بين تهليل وفرحة المحيطين من الصبية والأطفال وكنت واقف على الطرف الآخر نبذل جهداً للحفاظ على التوازن خلال الدوران مما آثار إعجابهم . . ودارت ساقية الهواء (كران كيمجى) بأقصى سرعة . . حتى جاء الصوت حاداً متصلا . . وسمعنا تهليل وتشجيع القرناء من كل جانب . . وفجأة . . أفلتت الخشبة من مكانها مع قوة الدوران . . مما تسبب فى وقوع كلينا على الأرض بشدة . . وكان ارتطامى بالأرض شديداً . . حتى أن بعض القرناء هربوا جرياً من مكان الحادث خوفاً من المسئولية . . بينما لم يتخل عنى صديق طفولتى جمال إمام . . ورغم وقوعه هو الآخر ، ومع ما كان يشعر به من ألم بسيط فقد تحاملت عليه . . وعلى قدم واحدة . . ووصلنا دارنا . . حيث كانت الأم التى قابلتنا بالبكاء وندب حظها فى إنجابى . . وصبت اللعنات على كل صغار النجع الذين تسببوا فى إيذائى من وجهة نظرها . . واستثنت صديقى جمال إمام من تهمة الإيذاء . . وتجمع الجيران على صوتها . . وأخذوا يخففون الأمر لها قائلين :

— بسيطة يا سبيلة . . الحمد لله .

— التواء . . أو كسر بسيط . . لا تخافى يا سبيلة .

— الصغار عظامهم لينة وتخف بسرعة .

وتولى كبار السن أمر علاجى .

ولا أنسى تلك الساعات الطوال التى مرت بطيئة ومؤلمة وأنا أقف

بطولى مدفوناً فى حفرة كبيرة حفروها . . وأوقفونى بداخلها . . وصبوا الرمل الناعم من حولى تاركين رأسى وعنقى فقط دون ردم . . وأذكر أنهم أوقدوا النار حول الحفرة بهدف نشر الدفء أكثر وأكثر حول جسدى المدفون . . وتصبب العرق غزيراً . . كنت أراه يتسرب من مسام الرمل المحيط بى على سطح الرمل .

والتف حولى أهل نجعنا الطيبون يخففون من آلامى ويقدمون لى السوائل بكثرة . . والأم سبيلة تحوم وتدور حولى قلقة وتتصنع الابتسامة عندما تسمع كلماتهم لى مشجعين يقولون :

— عمر الشقى بقى . . لا تخفف يا فرح . . سترجع كما كنت .

— ما الخوف . . ياكر سيشفى ويمكنه لعب الحجلة (الهنداكية) .

— لا شىء . . اعطوه مزيداً من السوائل . . (الجنزبيل) على الأخص .

وأذكر أننى بقيت على هذا الحال حتى مغيب الشمس . . حين أخرجونى من الحفرة . . وأخذوا فى تدليك كل جسدى وخصوصاً الساق بأنواع من الدهون المعالجة بأعاصير النباتات . . وتشمرت سيدة مسنة تنسج كمية من خوص شجر (الدوم) فى دراية ، حول ساق الملتوية . . على هيئة (جبيرة) . . ثم نثروا كمية من شعر الماعز على ظهرى بعد أن دهنوه ببياض البيض . . فتماسك . . وصلب . . وكأنه (جبيرة) من مادة الجبس الطبية . . وقدم لى عشاء خاص دسم . . ثم استسلمت لنوم عميق حتى اليوم التالى .

وفى اليوم التالى كنت أجلس بين قرنائى أشاهد مباراة لعبة الحجلة

(المنداكية) . . وبعد أقل من أسبوع واحد كنت قد شفيت تماماً وأشارك فى كل اللعبات حتى لعبة ساقية الهواء (كـ ان كيجى) . . بشكل عادى .

انتصف موسم الصيف . . واشتد وهج الشمس فى كبد السماء حتى يخيل إليك أن الشمس الواهجة لا تتحرك من مكانها فى منتصف السماء .

الأهل والعشيرة . . كباراً وصغاراً . . منهمكون فى جمع محصول النخيل . . المناجل والآلات الحادة تقطع عراجين البلح الناضج دون هوادة . . حتى تتجا د النخيل من عراجينها المكتنزة بالتمر . . تتجرد منها فتبدوا وكأنها خارجة لتوها من معركة خسرتها . . وتتلوى مع فعل الرياح وكأنها لا تزال تترنح من قوة ضربات المناجل والآلات الحادة عندما قطعت عراجينها وبعض جريدها . . وكانت الحركة لا تهدأ فى نقل كميات التمر (البلح) المجموعة إلى الدور وأماكن الحفظ على ظهور الدواب . . وهناك أفنية الدور الواسعة وضعت فى أكوام مصنفة . : كل نوع من الأنواع على حدة . . كما فرشت بعضها على الأسقف معرضة للشمس لإتمام نضوجها وجفافها .

على جوانب الأفنية كانت ترى أكوام العراجين (السباطات) المجردة من التمر ، التى تستخدم فى صنع المكانس (كوسير) ، كما تدخل فى صنع أطباق الخوص المزركشة التى برع فى صنعها – فتيات النوبة .

كنا لانمل السير فى دروب القرية ... وبين أكمات النخيل نتأملها

فى إعجاب . . ونحمل كل منا عصا طويلة مثبتاً فى طرفها إبرة مدببة . . نستعملها فى غز فراغات جذوع النخيل . . أو جريدها بحثاً عن بلحة مارقة فيها عندما جمعوا المحصول . . وننتقى النخيل الجيدة التمر لهذا الغرض . . فقد كنا نعرف أنواعها بالوراثة . . ونعرف كذلك كل الرجال الأشداء من أهل القرية المتخصصين فى جمع محصول النخيل و (تذكيرها) . . تلقيحها . . ويكون هؤلاء الرجال لهم حضرة مرموقة فيما يعملون . . فهم متدربون على تسلق أية نخلة مهما كان طول جذعها ويعرفون كيف التعامل معها وأشواكها المدببة الحادة . . ويتحدونها بمناجلهم وآلاتهم الحادة .

كان هناك رجال من هؤلاء يستأثرون بإعجابنا نحن الصغار من الأطفال والصبية . . كان يبهرنا مهارتهم وقدرتهم فى هذا الشأن . . الأمر الذى يحتاج أيضاً الشجاعة والمغامرة فى التسلق . . وكنا نعرفهم بأسمائهم . . ويدور الجدل كثيراً حول هؤلاء الرجال ومهاراتهم . . وقد كانوا تلك المرة التى قال فيها أحدالقرناء مشيراً إلى نخلة طولها فارة . . وجذعها ملتو من فرط الطول . . قال :

— هذه النخلة الكبيرة . . قد جمع محصولها (عبده الأعمى) . . وكان رجلا أعمى بالفعل ولكنه شجاع مقدام تخصص فى ذلك العمل . . وعترضه واحد يقول :

— كذاب . . إنما قام بذلك (بترّان الأعور) . . فهو شجاع ولا يقدر على هذه النخلة غيره .

— كذاب . . بل عبده الأعمى .

وتشبث كل منهما برأيه .

ـ أنا قلت : عبده الأعمى .

ـ وأنا قلت : بتران الأعور .

واشتد الجدل . . ويتدخل كل الصغار فى المناقشة . . وانقسمنا إلى فريقين كل فريق يؤيد واحداً منهما . . وتصايحنا . . وكدنا نتماسك بالأيدى فى عراك . . حتى رأينا الشاب (إدريس) قادماً نحونا خارجاً من بين أكمات النخيل . . كان شاباً مفتول العضلات . . فتصنعنا الهدوء . . وتوقف الصخب . . ولدهشتنا فقد تقدم إدريس بخطوات واثقة إلى النخلة الكبيرة محل الخلاف . . وتسلقها فى اقتدار وخفة متناهية ، ونحن نرقبه بإعجاب . . وكان عند قمتها فى لحظات . . حيث اشرأبت رؤوسنا نشاهده سعداء لما نرى من مهارة . . وهو يتأبط (السباطة) الوحيدة التى كانت متروكة على قمة النخلة دون قطع . . وتبادلنا النظرات دون تعليق . . فقد كان كل شىء واضحاً . . فهو الذى جمع محصولها . . والدليل على ذلك تلك السباطة التى يأخذها مقابل جمع المحصول والتلقيح . . كعادة أهل البلاد فى هذا الشأن .

ولكن صاحب الرأى القائل : إن (عبده الأعمى) هو الذى جمع المحصول . . كان زميلا عنيداً . . فقد قال معلقاً على ما حدث :

ـ لا بتران الأعور ، ولا إدريس هذا فى مثل شجاعة عبده الأعمى .

ولأمر لم أعرفه ، فقد استفزنى قوله . . وتشاجرت معه . . وتماسكنا بالأيدى . . وتبادلنا اللكمات . . حتى تدخل قرناؤنا ،

وأمسكوا بنا . . وخرجت من المعركة وجزء قد تمزق من جلبابى . . وجاء أول قرار جماعى عرفناه . . عندما قرر الموجودون من قرنائنا أن أقوم أنا أيضاً بتمزيق جزء مماثل تماماً من جلبابه . . ورضخ الزميل لأمر الجماعة وتصالحنا بعد أن قمت بذلك العمل بإشراف الجماعة وقبول الخصم . . والمقياس تماماً . . قطع بقطع .

إن الأمر لم ينته عند هذا الحد . . فعند عودتى إلى الدار قابلتنى الأم سبيلة بكثير من الهلع عند رؤيتها التمزق فى جلبابى . . وبادرتنى بالسؤال ، كمن تجرى تحقيقاً وقالت لى :

— ما هذا يا فرح ؟ . . ما الذى مزق لك الجلباب . . هيه ؟

قلت لها :

— تشاجرت أنا وأحد الأولاد من قرنائى .

قالت مهددة وغاضبة :

— ومن هو ذلك اللعين . . الذى مد يده عليك . . من ؟ . . تكلم .

قلت لها وكأننى أنهى الموضوع فى ضيق :

— أنا أيضاً مزقت له جلبابه بنفس المقاس . . وتصالحنا . . .

ورأيت الأم سبيلة ، تهدأ كمن تكون قد اقتنعت بالحل واكتفت بأن تسدى إلى نصيحة اعتدت سماعها كثيراً ، قالت :

لا تتشاجر مع أحد من قرنائك . . فكلهم أقرباؤنا . . وفى مكانة إخوتك يا فرح . . الله يلعن الشيطان .

وبدأت تحيك لى مكان التمزق من الجلباب وهى تتحسس خفية أماكن جسدى خوفاً من أن أكون مصاباً فى أى جزء .

كانت الأم سبيلة فى ذلك اليوم منهمكة فى صب كمية منتقاة من البلح فى (الأزيار) الفخارية (غوق) . . ورأيتها تخلطها بالرماد ، والفحم المطحون فى عناية . . فإن ذلك يحمى التمر من التسوس والتلف مهما طال حفظه . . فذلك هو المخزون الخاص الذى سيظل أكثر من عام لاستعمال أهل الدار وضيوفهم على مدار الأيام . . على أن أجود أنواع البلح هو ذلك النوع الذى يخصص للأخصاء جداً من الضيوف ويسمونه بلح الضيافة (اسكيتا) . . فهو ذات حجم يصل إلى ضعف البلحة العادية . . ونواتها أقل من نصف النواة العادية للبلح . . ويحتفظ بقدر من الليونة مهما طال حفظه .

كان الوقت قبيل منتصف النهار . . عندما دوت (زغرودة) منغمة تدوى فى أرجاء نجعنا . . واندفعنا نجرى نحو مصدرها . . كان المصدر دار (عم شعراوى) جارنا . . تزاحم أهل النجع هناك . . كان الجميع رجالا ونساء يهنئون الرجل صاحب الدار . . وتكتسى كل الوجوه بابتسامة سعيدة . . والرجل (عم شعراوى) يأخذ مكانه جالساً على (أبراش) مزركشة مع جمع من الرجال المهنئين فى فناء داره . . كانوا يتحدثون ويتسامرون سعداء ضاحكين . . كان هناك من يتحدث عن أوصاف المدينة . . البندر . . وعماراتها العالية . . والعربات . . . والترامو ايات . . وأخذوا يعددون أسماء من يتوقعون عودتهم فى تلك الأيام للقرية . . ويتناوبون قراءة (تلغراف) يخص العم شعراوى . . والذى كان يحمل خبر عودة ابنه وأسرته فى الباخرة النيلية التى ستصل بعد يوم وليلة . . ويعلق بعضهم عن احتمالات تأخر الباخرة .

فالباخرة السودانية البطيئة لا تقوى على السرعة فى هذه الأيام لأن التيار شديد . . وقت فيضان . . ولكن هناك من يقول :

— لا أبداً . . الباخرة ستصل باكر قبل الظهر على الأكثر . . فقد عرفت أنها الباخرة المسماة « مروى » . . وهى قوية غير الباخرة « هكسوس » و « المريخ » . . فالأولى ماكيناتها ألمانية قوية .

ويعترض آخر يقول :

— كان ذلك فيما مضى . . منذ عشرين سنة . . ولكنها أصبحت الآن قديمة مثل غيرها من البواخر .

ويدور جدل حاد عن موعد وصول الباخرة . . حتى يحسم الأمر رجل مسن كان يجلس راقداً . . قال :

— يا جماعة . . دعوها تصل وقتما تشاء . . المهم أن يصلوا بالسلامة

وتتزاحم الدعوات القائلة :

— إن شاء الله . . إن شاء الله .

ذلك بينما كانت النساء تتحركن فى نشاط ملحوظ — وتقلمن (الفشار) الأبيض والتمرات المنتقاة للرجال . . ويضعونها أمامهم منسقة فى الأطباق الخوصية الملونة . . وتدور أكواب الشاى الساخن المخلوط باللبن .. ونحن الصغار مندسون بينهم نشارك الجميع فى الوليمة .. ونصيخ السمع لما يدور من حديث بين الكبار .. ونتلهف إلى معرفة موعد وصول الباخرة بالتحديد حباً فى رؤية منظرها وهى ترسو فى خيلاء منظر أخاذ عند المرسى .. ولكن حوار الكبار فى تلك المرة لم يؤكد الموعد بما يرضى فضولنا .. وانصرفنا بعد أن حشينا بطوننا بالفشار والبلح .

قال لى جمال إمام صديقى وزميل طفولتى .. قال : إنه عرف من حديث الكبار أنه بين القادمين من أسرة ابن شعراوى ولد فى مثل عمرنا . . وأخذ يصفه بأنه لابد وأن يكون نظيفاً لامعاً كسكان البندر . . واستدرك يقول : بأن هؤلاء لا يجيدون السباحة مثلنا .. فلا يوجد عندهم نيل . . بحر . . وكذلك لا يقدرون على لعب الحجلة (الهنداكية) ولا المصارعة « المور » . . وأضاف يقول فى استنكار :

— إنهم رغم ذلك يعتقدون أنهم أقوى منا . . وأحسن منا . . وشاركته الاستنكار . . حتى أننا اتفقنا فيما بيننا على أن نتعاون سوياً فى ضرب ذلك الولد القادم من المدينة حتى يفهم قدرنا .

جاء يوم وصول الباخرة . . وكنا أنا وصديقى جمال إمام من أول المنتظرين عند المرسى ، بمجرد أن عرفنا أن الباخرة رؤيت آتية من بعيد بحرى القرية . . وأتت الباخرة تطلق صفيراً متصلا وارتفعت الحناجر على أثرها تقول هاتفة :

خير . . خير . . خير .

وهنا ظهر فى مقدمة المستقبلين للباخرة رجل يلبس رداءاً رسمياً ذات أزرار صفراء منسقة، ويحمل تحت إبطه حقيبة صغيرة عرفت أنه يدس بها الخطابات مثل التى تصل لأمى سبيلة من والدى الغائب فى المدينة.

واشرأبت الرؤوس عندما قربت الباخرة من المرسى . . وتجمهر المنتظرون لها متقدمين نحو الشاطئ . . ويتقدمهم لابس الرداء الرسمى (أفندى البوسطة) . . أو (وكيل البريد) ووقف لصيقاً باللافتة — الخشبية التى تحمل اسم القرية كمرسى للباخرة . . (المحطة) .

رست الباخرة . . بعد أن دارت حول نفسها دورات . . مألت بمقلمتها لصيقة بالشاطئ . . وأنزلق منها الحامل الخشبى (السقالة) . . حيث كان وكيل البريد أول الصاعدين وكأنه هو الوحيد صاحب الباخرة . . ثم تزاحم الصاعدون . . والهابطون . . والحمالون . . فى جلبة وضوضاء ونداءات

جلست أنا وصديقى جمال إمام القرفصاء بعيداً عن الزحام . . واكتفينا بمشاهدة ما يحدث . . ورأينا فيما رأينا رجلا أنيقاً ينزل من الباخرة ومعه أسرته . . وأخذنا نتفحصهم حتى رأينا ابنه الذى هو فى مثل عمرنا . . كان يلبس جلباباً ذات رقبة مخططة بخطوط حمراء طولية . . لامعة . . كأنها من الحرير . . ووجدناه يرتدى حذاءاً لامعاً ذات أربطة . . ويضع فوق رأسه طاقية بها رسوم ملونة تمثل جملا باركاً . . ونخلة . . وغيرها من الرسوم.

وعندما اقتربنا منه شممنا رائحة حلوة . . قال عنها جمال إمام : إنها لا شك رائحة المدينة . . أو ربما هذه رائحة الحلاوة الطحينية التى قيل : إنها تكثر هناك مثل البلح عندنا . . وأخذنا ندقق النظر للولد ونتفحصه بعيوننا . . فتأكدنا أنه ضعيف البنية . . رقيق مثل ملابسه . . ولا يمكن أن يجارينا فى المصارعة (المور) . . فانصرفنا فرحين . . متفقين على أن نضربه فى أول فرصة ونبرهن له أننا أقوى وأقدر منه .

فى طريق عودتنا إلى نجعنا . . سمعنا صوت الباخرة تصفر ثلاث مرات متقطعة إيذاناً بمغادرتها للمرسى . . ورأينا جموعاً متفرقة عائدة لبيوتها فرادى وجماعات . . وتصادف أن كان يسير أمامنا مجموعة من الرجال الغرباء عن القرية . . كانوا يتكلمون بلهجة عربية لم نكن قد اعتدنا سماعها كثيراً . . كانوا يتبعون رجلا ضخم الجثة ، يلبس

ملابس بيضاء هفهافة ولكنها متسخة . . كنا نعرفه . . فهو تاجر القرية الذى ينتمى إلى مدينة أسوان ذاتها . . وقد اعتدنا شراء (الحلاوة الطحينية) منه كلما حصلنا على قرش من ذوينا . . كان الرجال الغرباء يحمل كل منهم عصا طويلة . . ويضعون على رؤسهم طواقى بنية ، وكأنها منسوجة من ليف النخيل . . وجلاليبهم بأكمام كبيرة تغطى كل الذراع وتتدلى إلى ما بعد اليد . . وعرفنا أن هؤلاء الرجال هم كيالون محترفون لكيل البلح . . يستجلبهم ذلك التاجر كل عام فى موسم محصول البلح خصيصاً لعملية الكيل . . . ولم أكن لأدرك ما هو السبب لاستجلاب هؤلاء الرجال بالذات ، إلا عندما جاء التاجر برجاله الكيالين فى بيتنا لشراء البلح الذى جمعته الأم سبيلة بالكد والعرق على مدى أكثر من شهر كامل .

كان الكيالون الغرباء يقومون بكيل البلح الخاص بنا . . كنت أراقبهم عن كثب . . كانت الأم سبيلة غاضبة لأمر لم أتبينه . . وتوجه كلمات غاضبة للكيالين وتقول لهم :

ـ ألا ترحمون ؟ . . هل هذا كيل ؟ . . إنكم تسرقوننا فى وضح النهار . . كيف ستقابلون ربكم ؟ . . يا ظلمة .

كان التاجر ضخم الجثة يقف مراقباً لرجاله الكيالين . . كانوا يضربون كومة البلح ضرباً . . بالكيلة الخشبية المحزمة بالسياج المعدنى الصلب . . يضربونها باحتراف فتكيل أكمامهم الواسعة كمية من البلح لا تقل عن محتوى الكيلة ذاتها . . بينما يمد له الرجل الآخر فتحة الجوال ليصب فيها البلح ليحتوى الجوال ما يوازى كيلتان فى المرة الواحدة . . ويعلن عن العدد بصوت مرتفع قائلا :

- . الله واحد .

ويضرب الضربة الثانية ويقول :

- مالوش تانى .

ويكون الجوال الكبير قد امتلأ بالكيلتان .. ويليه الجوال الثانى .. ثم الثالث والرابع . . وهكذا .

ويشحذ التاجر الجشع همة رجاله قائلا :

- ياللا الهمة . . شدوا حيلكم يا رجال .

بينما لا تتوقف الأم سبيلة عن صب لعناتها عليهم حتى أن التاجر يقول لهم :

- لا تعطوا بالا لما تقوله الست سبيلة . . إنها سيدة طيبة . . وتحب المداعبة .

فتزداد الأم سبيلة فى ثورتها وتقول له ثائرة :

- يا رجل يا ضلالى . . أنا لا أداعب أحداً . . ولكننى أقول الحقيقة . . هوى . . منا . . إيه ؟

ولكن التاجر الضخم . . يهتز ضاحكاً كمن سمع دعابة مضحكة ، يخاطبها قائلا مداعباً :

- لا بأس يا سبيلة . . انظرى إلى الرجال كيف وأنهم أشداء . . وقارنيهم بزوجك الذى يعيش فى المدينة . . فى البندر . . فى الرطوبة . . فى الضياع .

وتثور الأم سبيلة مستنكرة ذلك قائلة فى حدة :

— ماذا ؟ ماذا تقول يا رجل ؟ . . أتقارن هؤلاء الكفرة بزوجي . . هؤلاء الصيع الذين تستأجرهم ؟ . . هيه ؟

ويستمر التاجر فى ضحكه ومداعبته قائلا لها :

— يا سبيلة . . استعملى عقلك . . زوجك بعيد فى المدينة فاختارى لك زوجاً منهم . . عصفورة فى اليد خير من ألف طائرة .

ويضحك الرجال من قوله . . مما يثير خجل الأم سبيلة . . . أو اشمئزازها من الحوار فتنصرف داخلة إلى إحدى الغرف وتتركهم يهبون البلح نهباً .

كان العمل لا يزال على أشده فى جمع محصول البلح . . فأهل القرية مشغولون جميعاً فى هذا الأمر . . وبين النخيل . . كانت تشاهد أيضاً جماعات من البائعين المتجولين . . بائعوا (الطعمية) الساخنة . . الحلوى . . الخرز الملون . . الأساور الزجاجية الحمراء والخضراء ، والصفراء . . وغيرها . . يبيعون بضاعتهم مقابل حفنات البلح . . فكل أربع بلحات تعتبر وحدة . . يقولون عنها : « تورة » . . حفنة من (الحمص) المسلوق بخمس تورات من البلح . . قطعة (الطعمية) بثلاث تورات أو أربعة . . وهكذا . . ويستمر (الكرنفال) العجيب دائراً بين النخيل طوال النهار فى فترة جمع المحصول .

وفى مثل تلك الأيام كانت القرية النوبية تعج بأناس غرباء عنها . . بغرض الحصول على حفنات من البلح المجموع . . ويستعملون لذلك كل الأساليب الممكنة .

هذا هو عازف (الربابة) . . يتوقف عند كل باب دار من دور

نجعنا . . يعزف أزيزاً متصلا على ربابته . . ويرفع عقيدته بالغناء . . صوته أجش . . وكلماته غير مفهومة لدينا . . ولكننا كنا نستملحها على كل حال . . حتى أن العشيرة كانوا لا يبخلون فى إعطائه حفنات البلح . . فينصرف من أمام باب إلى الآخر . . يغنى قائلا . . مع العزف على الربابة :

ألف صـــلاة ع الزين
نبينــــا رســـول الكون
رى . . . رى . . . رى . .

وكنا نسمع كبارنا يتمتمون بالصلاة على النبى عندما يسمعون هذه الفقرة . . ثم لا يعرف ما يقوله بعد ذلك .

عند باب دار صليحة إمام . . وقف صاحب الربابة يغنى ويقول نفس المقاطع التى رددها أمام البيت الذى قبله . . عندما خرجت الفتاة صليحة وأعطته كمية لا بأس بها من البلح . . صبها الرجل فى الجوال المدلى على جانبى حماره الذى يتبعه كظله . . وسار نحو البيت الذى يليه وهو يعزف بربابته . . ويردد بصوته الأجش مغنياً :

كتر خيرك . . . كتر خيرك . . .
رى رى رى

* * *

لمحتنى الفتاة صليحة ، وأشارت لى أن أدخل إلى دارهم . . وهناك جذبتنى من يدى . . ودست قطعاً من الحلوى فى جيبى . . وربتت على كتفى فى حنان . . سألتها فى اهتمام بالغ :

– صليحة . . هل عرفت شيئاً عن الحصان الذى سيأتى مع فرقة (الحلب) إلى قريتنا ؟

فهمت الفتاة أنى تواق لمعرفة أخبار الحصان . . فأخذت تصفه لى وتقول :

– نعم يا فرح . . الحصان لونه أحمر . . على جبينه خصلة بيضاء جميلة .

قلت أستزيدها :

– هيه يا صليحة . . قولى .

قالت :

– وذلك الحصان يركبه فارس . . معلم يسمى (المعلم بحراوى) وهمست إلى قائلة :

– إن هذه أخبار لا يعرفها غيرى فى القرية يا فرح .

سألتها وأنا أكثر اهتماماً :

– ومن أين لك كل هذه الأخبار يا صليحة ؟

قالت :

– من حامل (المبخرة) . . الذى مر قبل عازف الربابة الذى خصنى بهذه الأخبار مقابل كمية زائدة من البلح .

كنت تواقاً لأعرف أكثر . . فأضافت تقول :

– إن المعلم بحراوى هو أمهر راكب للجواد فى الدنيا . . ورجاله أحسن من يعزف على المزمار . . أما الطبالون فلا يدانيهم أحد . . و . . . و . . .

واستمعت إلى الأخبار فى شوق . . فقد كان ذلك زاداً لى أفاخر به قرنائى من الصغار .

جذبتنى صليحة إمام وأجلستنى بجانبها . . وقالت لى بلهجة مختلفة :

– قولى يا فرح . . هل يمكننى أن أعتمد عليك فى توصيل رسالة إلى (إدريس) دون أن يعرف أحد ؟

قلت لها فى ثقة :

– نعم يا صليحة .

قالت سعيدة :

– ما شاء الله . . لقد كبرت يا فرح وأصبح من الممكن الاعتماد عليك .

قلت لها متفاخراً :

– لقد كبرت فعلا . . حتى إن إدريس نفسه يعتمد على فى إسقاء حماره الخاص من البحر بمفردى . . ولا يثق فى طفل غيرى .

وأخذت ترمقنى مبتسمة أكمل ما أقول .

– إن حمار إدريس مدلل . . فهو لا يشرب إلا إذا صفرت له صفيراً خاصاً لا يعرفه إلا أنا وإدريس . . تصورى . . حتى حماره يعرفنى .

وقاطعتنى الفتاة صليحة بلطف . . لتقول لى لهجة جادة هامسة :

– حسناً يا فرح . . عليك أن تبلغ إدريس أن (العريس) الذى كان سيحضر من المدينة . . البندر . . ليتزوجنى لن يفعل ذلك . . إنه لن يحضر .

وكررت ما قالته مرة وأضافت تقول :

- والمهم أن لا يعرف إدريس أنني قلت لك ذلك .

فقلت لها متسائلا :

- وإذا ما سألني . . ماذا أقول له ؟

قالت :

- قل له : إنك سمعت ذلك من أفواه الناس .

قلت لها :

- فهمت .

أضافت تقول :

- والمهم يا فرح أن ترى ماذا سيكون وقع الخبر عليه . . . وتخبرني . . هيه ؟ !

فهززت رأسي موافقاً . . بينما لم تنس صليحة إمام أن تدس كمية أخرى من الحلوى في جيبي . . وخرجت من دارها مسرعاً . . وقد طغى على كل تفكيري تلك الأخبار المثيرة عن الحصان الأحمر ذات الحصلة البيضاء على جبينه . . والمعلم بحراوي أمهر الفرسان من راكبي الجواد على الإطلاق كما قالت صليحة إمام .

* * *



الحكاية والذكرى (٥)

مواكب الحلب

بدأ الزحام يخف بين النخيل .. وتخلصت أغلب النخلات من أحمالها من التمر . جمعت ونقلت للبيوت .. بينما قلة منها لا تزال تختال بثمارها فى انتظار من يجمعها من الأهالى .

سرت فى دروب القرية ونواحيها ، أبحث هنا وهناك على « إدريس » .. كان على أن أبلغه الرسالة التى كلفتنى بها الفتاة صليحة إمام .. وبعد بحث وتفحص فى الرائحين والغادين، وجدته عند حقله .. كان كعادته مرحاً بشوشاً .. ينم مظهره على الصحة المكتملة للشباب .. وجدته وهو يتهيأ لتوه لتناول طعام الإفطار .. لاقانى بابتسامة حلوة .. ودعانى فى دعابة لتناول الإفطار معه .. فلبيت على الفور ودون أى تمنع . افترشنا الأرض بجانب جدول الحقل .. يتوسطنا إناء فخارى لامع (فالاه) .. أزاح إدريس غطاء الطبق الخوصى المزركشى (شوبر) .. وهلل فرحاً وهو يشير لى على المحتوى .. وأخذ يشرح لى نوع الأكلة قائلا :

ـــ آه .. إنها الأكلة المفضلة .. نوع من الخميرة بعسل التمر (آنغسيرية) .

وتساءل بسرعة يقول :

ـ يا ترى هل أكلت ذلك من قبل يا فرح ؟

قلت :

ـ ربما . . مرة . . ولكنني لا أذكر متى .

ابتسم وهو يعطيني (الملعقة) . . وبدأنا تناول طعام الخميرة بعسل التمر (آنغسيرية) . . بينما أخذ إدريس يشرح لي كيفية إعدادها . . يأتون بحبوب الذرة الرفيعة . . يخلطونها بطين (الطمى) ذلك الغرين الذي يأتي به الفيضان ويرسبه على شاطئ النيل . . ويفرشون الخليط على الحصر (الأبراش) ويرشونه بالماء كل فترة . . حتى تنبت حبات الذرة . . يغسلون الخليط بالماء للتخلص من الطين . . يطحنون الذرة المنبتة حتى تصير كالعجينة . . ويصنعون منها أقراصاً غليظة ويعرضونها للنار . . ثم تعجن مرة أخرى وتحفظ في أوعية فخارية لعدة أيام حتى تخمر . . وتقدم للأكل بعد خلطها بالماء وغسل البلح . . كما ترى .

وقال إدريس : إن هذه الأكلة وجبة مفيدة وقوية . . وهي المفضلة لفئة المزارعين بصفة خاصة . . وكذلك كل الذين يبذلون مجهوداً جسمانياً كبيراً . . وللمسافرين على ظهور الدواب لمسافات طويلة . . خصوصاً في فترات الحرارة الشديدة . . فهذه الأكلة (آنغسيرية) تمنع العطش . . وتروى الجسد .

كنت أستمع إلى إدريس . . وأعجب من الأكلة المفيدة . . وأسرح بذهني في استمتاع أكثر بالأخبار التي عرفتها عن معلم الحلب . . راكب الحصان ذات الخصلة البيضاء . . وكيف أنني سأفاجيء قرنائي بتلك

الأخبار التي عرفتها . . ولا شك وأنهم سيدهشون . . وسيطلبون المزيد من أخبار الحلب . . ولكنني سأتمنع . . وأتدلل . . وأتعالى عليهم . . وفجأة وبدون مقدمات سألت إدريس قائلا :

ـ هل تعرف المعلم بحراوى يا إدريس ؟ !

قال مفكراً :

ـ المعلم بحراوى ؟! . آه . . إنه ذلك الحلبي راكب الحصان .

وأضاف يقول :

ـ رأيته أكثر من مرة في موسم محصول البلح . . على جواده مع فرقته من الحلب .

قلت له في تلهف شديد :

ـ احك لى عنه المزيد يا إدريس .

ازدادت الابتسامة على وجهه وأخذ يصفه لى بأنه رجل أحمر اللون . . يرتدى ملابس أنيقة . . ويضع على رأسه (طربوشاً) أحمر ذات خصلة زرقاء . . وعمامته صغيرة ملفوفة بعناية حول الطربوش . . أما جواده فهو أحمر اللون سريع الحركة والجرى . . يرقص ويتمايل مع نغمة المزمار والطبل عندما يوعز إليه المعلم بحراوى ذلك . . ويهز رأسه مع النغمة ، مما يجعل خصلة الشعر البيضاء على جبينه تتطاير في الهواء . . . و . . . و . . .

وقاطعته هاتفاً أقول :

ـ تماماً . . تماماً . . إنه هو . . هو الذى سيأتى باكر إلى قريتنا مع فرقته من الحلب .

ويبدو أن إدريس قد لاحظ تلهفى واهتمامى الشديد بالأمر فابتسم أكثر وربت على كتفى يسألنى قائلا :

— هل ركبت الحصان أبداً يا فرح ؟

قلت له :

— لا . . أبداً . . فأنا أخاف من سرعته . . وقد أسقط من فوقه .

فضحك إدريس وهو يقول :

— لا . . لا . . يا فرح . . أنت الآن قد كبرت . . والكبار لا يخافون من ركوب الخيل .

قلت كمن يبرر مسألة الخوف .

— لست أنا الذى أخاف . . ولكن أمى سبيلة هى التى تخاف على من الوقوع .

قال إدريس فى لهجة مطمئنة :

— لا عليك يا فرح . . باكر . . عندما يأتى الحلب سوف أستأجر بالبلح دورة أو دورتين بالحصان . . وأركبك خلفى .

وسرحت بذهنى أتصور نفسى وأنا على الحصان . . وقرنائى من الأطفال معجبون بى ويهللون لنا قائلين :

— « حاشير . . حاشير » .

ويجرون بعيداً عن طريق الحصان الرامح بنا مثل الريح . . إنه منظر بديع . . ياه . . وأسبلت عيناى وكأننى أحلم حلماً بديعاً . . . وأفقت عندما سألنى إدريس قائلا :

— هل هناك أخبار جديدة عن ميعاد حضور والدك من المدينة ؟

وبسرعة تذكرت رسالة صليحة ورحت أسرد الرسالة بدون مقدمات كما قالتها صليحة وهو يسمعنى فى اهتمام شديد . . قلت له :

ــ العريس الذى كان منتظراً أن يحضر ويتزوج من صليحة إمام لن يحضر . . والإشاعات تقول : إنه تزوج من امرأة بيضاء من نساء المدينة . . البندر . . وصرف النظر عن الزواج من صليحة إمام . . هكذا يقولون :

قال إدريس سائلا فى اهتمام شديد :

ــ من الذى قال ذلك يا فرح هيه ؟ . . قوللى .

قلت له :

ــ كل الناس يقولون ذلك . . كل الناس .

ويبدو أنه كان يريد إجابة أخرى . . أو يكون قد عرف الحقيقة . فقد وجدته ينظر إلى نظرة حادة ولكنها ودودة . . وقال لى :

ــ يا صديق فرح . . هل صليحة إمام هى التى كلفتك ؟ هيه ؟

ولم أتمكن إلا من أن أهز رأسى بما يفيد (نعم) .

ولاحظت أنه اعترته سعادة غامرة . . وهلل وجهه بالفرحة . . وأخذنى بين ذراعيه مقبلا . . فوجدتنى أقول له :

ــ ولكن قالت لى صليحة . . أن لا أقول لك : إنها هى التى كلفتنى بذلك . . إلا أنه لم يهتم كثيراً لما أقول . . وتركنى وأسرع إلى حيث لا أدرى . . تاركاً إياى بمفردى .

* * *

كان الحديث لا يفتر بيننا عن أطفال وصبية القرية . . عن خيول الحلب . . ولاحديث إلاعن فرقهم . . وطبولهم ومزاميرهم . . فيقولون :

— لقد ركبت حصان « المعلم عدوى » مع أخى الأكبر . . وطار بنا كأنه يطير فى الهواء . . ولم أخف من السقوط .

— حصان « المعلم عاشور » أجدع . . ذيله كثيف الشعر . . قوى . . وراقص ممتاز . . ويقفز على قدميه الخلفيتين . . ويقف عليهما . . ولا يجاريه أى حصان فى السرعة .

ويسأله طفل آخر :

— هل رأيته بعينيك ؟

ويجىء الرد سريعاً من القائل :

— لا . . أحد أصحابى . . هو الذى رآه .

ولم أكن أشاركهم الحوار . . ورأيت أن الوقت مناسب لأن أسدى إليهم سراً احتفظت به . . قلت لهم فى خيلاء وتعاظم :

— لقد اتفقت مع إدريس بأن أركب معه حصان المعلم بحراوى . . اليوم عندما يحضر الحلب فى نجعنا .

— صحيح ؟ . . صحيح يا فرح ما تقول ؟

— هل قال لك ذلك ؟

— هل قال لك ذلك ؟

— يا سلام . . يا ليتنى كنت أنت .

وطرقت أسماعنا صوت إيقاعات طبول الحلب الآتى من البعد :

دن . . درن . . دن . . درن . . دن . . درن

واعترتنا فرحة كبرى . . واشرأبت الرؤوس نحو مصدر الصوت . . واهتمام بالغ يشوبه نوع من الخوف والحذر . . فحصان المعلم بحراوى سريع وعملاق . . ويمكنه أن يدوس على أحد ويموته إذا لم يأخذ الحذر وشعرنا بخليط غريب من الفرحة والخوف والحذر . . وهاوت أصوات الطبول تسمع بشكل أوضح شيئاً فشيئاً . . فقد كانت فرقة المعلم بحراوى من الحلب تقترب من نجعنا . . ولم نحتمل الانتظار أكثر . . فتسابقنا جرياً إلى النجع المجاور . . نحو مكان الحلب . وكانوا هناك .

مجموعة رجال من حاملى الطبول ، والمزامير ، ومجموعة تحمل أعلاماً ملونة وأخرى بيضاء منقوش عليها كلمات بخطوط متعرجة يضعونها على أكتافهم أو يلوحون بها . . نقر رتيب على الطبول المحمولة . . وأخرى ضربات متقطعة . . بينهم منشد يردد كلمات منغومة ولكنها غير مفهومة . . الكل يتمايل بالرقص أو يدور هائجاً حول نفسه مع النغم كأنه مأخوذ بها . . والمعلم بحراوى على صهو الجواد الوحيد فى الموكب . . السرج واللجام وكل شىء على الحصان مزركش وذات ألوان متباينة . . حتى المعلم بحراوى له شكل وهيبة خاصة . . كأنه أكبر حجماً من باقى الرجال . . يتعامل مع حصانه فى دراية . . والحصان يتراقص برأسه ، وأرجله ويهتز راقصاً . . المعلم بحراوى كأنه جزء راقص من الحصان . . وكان رجل يطلق لحيته بلا حدود يلوح بمبخرة تطلق دخاناً كثيراً فى حلقة الحلب . . بحراوى ينطلق بجواده كلما ساروا إلى مكان فسيح بين الدور والنخيل . . يجرى بسرعة

ثم يعود إلى مكانه وبين فرقته .. فنجرى نحن الأطفال مبتعدين خائفين من الحصان بينما نصرخ بأعلى أصواتنا مهللين للحصان وراكبه قائلين :

(حاشير . . . حاشير . . . حاشير)

وهو صياح يؤدى إلى معنى أسرع . . أسرع . . وشكل من أشكال إظهار الإعجاب الشديد بالحصان ومنظره وجريه بطريقة التهليل . . الموكب يسير نحو نجعنا مخترقاً دروب النجع الذى قبلنا . . يتوقف كل فترة ويستعرض فنونه فى الإيقاع والرقص والغناء الجماعى وكانت جمله تطغى على غنائهم تقول :

عبد الرحيم القنـاوى
صلوا على النبى الهـادى . .

وترتفع دقات الطبول وهياج الراقصين مرددين الكلمة الأخيرة وهى التى تقول : (الهـادى . . . الهـادى . . . الهـادى) .

ويتسابق الأهالى فى منحهم حفنات التمر وكلما تزداد حرارة الغناء والرقص . . كانت كمية البلح أكثر . . ووصل الموكب إلى نجعنـا متبوعاً بأعداد كبيرة من الناس الفرحين والمهللين لمنظر الموكب . . ثم يتكرر فى نجعنا ما شاهدناه فى النجوع السابقة . . والاستعراض يستمر ساخناً . . « المعلم بحراوى » يجرى بحصانه ويعرض مهارته . . يرقص بحصانه . . ثم يرقده على جانبه وسط حلقة الراقصين والعازفين كجزء من مهاراته فى تدريب الحصان . . أهل نجعنا ليسوا أقل كرماً فى تقديم البلح ، والتمر لفرقة الحلب . . مقابل مزيد من عروضهم وحماسهم

فى الإيقاع والرقص . . أكثر من جوال كامل يمتلىء بالبلح . . تظل محمولة على ظهور الحمير الخاصة بالحلب .

كان سرورنا شديداً . . عندما توقف الحلب عند منتصف نجعنا وأشار لهم المعلم بحراوى بالتوقف عن الطبل . . والزمر . . ونزل من ظهر الجواد الأحمر ذات الحصلة البيضاء على جبينه . . كان ذلك دليلا على قرارهم بقضاء ليلتهم فى نجعنا . . وذلك يعنى قضاء سهرة ممتعة بمشاهدة فنونهم التى اشتهروا بها . . وتوافد أهل النجوع الأخرى إلى نجعنا لذلك . . وربما كل أهل القرية . . فإن فريق الحلب بمثابة فرقة استعراضية متنقلة . . تعرض فنوناً غريبة علينا . . ولكنها تجتذب اهتمام الكبير والصغير . . وتثير سعادة من إحساس غريب فى النفوس . . غير أننا نحن الصغار كنا أكثر شغفاً بفرقة الحلب وفنونهم .

كان وجود فرقة الحلب ليلة كاملة فى نجعنا يعتبر تمييزاً للنجع . .

ويعتبر شرفاً له . . فى نظرنا نحن الصغار على الأقل . . ويدب نشاط ملحوظ فى كل دور النجع . . النساء والرجال والشباب يهرولون هنا وهناك . . وداخل الدور . . فالعمل على قدم وساق لتقديم أحسن ما يمكن تدبيره من مأكولات فى وجبة العشاء لجمع الحلب . . فهم ضيوف على النجع . . والأمر يستدعى ذلك ليقدموا بدورهم أحسن ما عندهم فى السهرة التى تلى العشاء كما هو معهود . . على أن الجواد ذات الحصلة البيضاء على جبينه لا يشارك فى حفلة المساء . . فدوره يقتصر على عروض النهار . . ولابد وأن يأخذ قسطاً كافياً من الراحة بعد أن قدم له أحسن الوجبات من البرسيم الأخضر . . وكمية من

البلح الجيد . . فهو حصان المعلم بحراوى . . ذات الخصلة البيضاء على جبينه . . ولا غزو .

مع الاهتمام الزائد الذى شدنى لعروض الحلب . . لم أتذكر ما وعدنى به إدريس . . فقد كان وعده أن يركبنى معه حصان (المعلم بحراوى) على مرآة من قرنائى لأتفاخر بذلك بينهم . . ولكن ذلك لم يحدث . . ولم أشاهد إدريس أصلا خلال التجوال خلف فرقة الحلب . . ووجدت صديقى جمال إمام يقول لى فى ازدراء :

— يا كذاب . . ادعيت أن إدريس سيجعلك تمتطى صهوة الحصان .. حصان المعلم بحراوى .. ولكن هذا لم يحدث .. يا كذاب على أنى لا أذكر أننى وجدت رداً أدافع به عن نفسى .. وآثرت أن أصمت خجلا .. وغاضباً فى داخلى من تصرف إدريس وعدم وفائه بعهده لى .

وانتهى الحلب من تناول وجبة العشاء . . واكتفينا نحن الأطفال من مراقبتهم دون البحث عن عشاء . . فاهتمامنا الزائد بفنونهم قد صرفنا حتى عن تذكر أمور بطوننا . . وبدأت سهرة الحلب يعرضون فنونهم فى حلقة كبيرة نصبوها من رجالهم العازفين والمنشدين . . واستكملت الدائرة بعدد كبير من القادمين من النجوع الأخرى . . وكانت فرصة متاحة لنا أن نكون بين أعداد أخرى من أطفال وصبية تلك النجوع . . نتعالى عليهم ونتفاخر بوجود فرقة الحلب فى نجعنا . . ونتقافز فرحين مهللين . . مصفقين مع أغانيهم :

استنانى . . . لما ألبس توبى
استنانى . . . استنانى

وسط الدائرة . . تدحرج على الأرض . . وتقافز حملة الطبول من الحلب وهم مستمرون فى الإيقاع فى مهارة فائقة . . انبهرنا لهما . . وأعجبنا بها نحن الصغار . . وتبارينا فى أداء بعضها . . وفى اليوم التالى بعد أن غادر موكب الحلب نجعنا إلى نجوع أخرى . . وظل أفراد جدد منهم يأتون إلى النجع .. حامل وعاء البخور . . يكثر من الدعوات وكلمات الشحاذة عند كل باب دار . . يليه صائد الأفاعى ومستأنسها . . ويحمل بعضاً منها فى وعاء مستدير من الخوص (كبودة) . . تطل رؤوسها أحياناً فتخيفنا تلك الأفاعى . . فنجرى . . ولا يغادر أمام الباب إلا إذا أخذ نصيبه من التمر . . ثم يأتى عازف (الربابة) . . ثم . . وكلهم مقدمات تدل على أن فارساً آخر وفرقته فى الطريق إلى النجع . . عرفنا أن اسمه المعلم (بشلاوى) . . وأن حصانه أسود ذات جبهة بيضاء . . وانتظرناهم فى شوق .

* * *



الحكاية والذكرى (٦)

الدعـوة المفتوحـة

الوقت قبيل الظهيرة فى ذلك اليوم . . عندما رأينا أنيقة المظهر تجوب طرقات القرية . . مخترقة نجوعها تنادى بنداءات منغمة .

كنا نعرف تلك السيدة جيداً . . ونسعد بها نحن الصغار . . ربما بنفس القدر الذى كان يسعدنا رؤية مواكب الحلب .

كانت سيدة قد تخطت الكثير من سنين عمرها . . ربما الخمسين . . ولكنها قوية . . متماسكة . . لا يكاد من يراها أن يرى تجاعيد الزمن على وجهها . . بفعل ماتضعه من كحل حول عيونها . . والرائحة النفاذة التى تتعبق بها . . والملابس الجديدة التى ترتديها . . والحلى الكثيرة التى تتزين بها . . وفوق كل هذا وذلك تلك الابتسامة الحلوة والفرحة التى تغطى وجهها . . وتتدثر بغطاء للرأس (طرحة) من نوع خاص وألوان صارخة من الأصفر والأحمر كلون النار (حجولة) هذا غير أنواع من الحلى التى لا تناسب مثل ذلك العمر . . خرز ملون . . قطع من الفضة تتدلى على جيدها ورأسها . . وفوق كل ذلك تحمل بيدها اليسرى طبق خوصى مزركش فوقه علبة خشبية مستديرة ، لونها أحمر فاقع . . وشكلها على هيئة قباب المساجد . . يسمونها فى النوبة باسم « أجل » . . ويطلقون على تلك السيدة اسم (منادية الأفراح)

أو حاملة الـ (أجل) . . ويستبشرون عند رؤيتها بهذا الشكل . فهى تحترف الدعوة للأفراح . . والمناسبات السعيدة .

كانت تلك السيدة تصيح بأعلى صوتها تقول ما معناه :

يا أهل البـــلد . . . كلكم مدعوون
يوم الاثنين لبداية فرح إدريس (سما)
على صليحة إمام . . . عقبال عندكم جميعاً

وتطلق (زغرودة) . . تتجاوب معها من تسمعها من النسوة . . فرحات بالخبر . . وتسرى لمسة سرور فى أرجاء النجوع التى تمر بها . . ويكبر حجم موكب (حاملة الآجل) بأعداد فى الأطفال والصبية من بنات وبنين . وكنا كلنا نشاركها الموكب (الزفة) ندق على قطع من الصفيح . . وصغار الدفوف الخاصة بالأطفال . . وتشوح هى بيدها فرحة .. ونغنى معها سائرين مصفقين نردد معها الأغنيات التى تدعو للفرح .. بينما تشارك السيدات بالزغاريد المستبشرة عندما يشاهدون ذلك الموكب .. موكب حاملة الـ (الأجل) .. وبمرور هذه السيدة وذلك الموكب فإن أهل القرية كلهم يعتبرون أنفسهم مدعوون للمشاركة فى إقامته .. سواء من رأى منهم الموكب أو غيرهم .. ومن يتخلف منهم فهو الملام .

ويتجمع أهل القرية رجالا ونساء وصبية وأطفال .. وتنحر الذبائح فى كلا البيتين .. والجميع يقضون يوماً كله عمل وغناء وفرحة .. وذلك هو اليوم الذى يسبق يوم (الفرح) والزفاف بأسبوع أو أكثر .. الجميع يعملون كخلية نحل فى إعداد البيتين لمثل ذلك اليوم .. يوم الفرح .. فالشباب

منهم فى بجلب قطع الأخشاب من الأشجار . . وتقطيعها إلى قطع . . وتشوينها لأغراض الطهى . . ويتسلق البعض حوائط الدارين يصلحون من شأن سقوفها الجريدية . . ويشاركون البنات والسيدات فى ترميم الحوائط وزخرفتها بالرسوم المناسبة . . وقد لا يخلو الأمر من كتابة بعض كلمات التهانى والدعوات المستبشرة للعروسين على الحوائط ، وتقوم السيدات المسنات بتنقية الحبوب من قمح وذرة وإعدادها للطحن دقيقاً لعمل الخبز اللازم يوم الفرح . . وينهمكون فى عمل كميات وفيرة من (الفشار) . . وإعداد أقراص الخبز الذى يقومون بتجفيفها بعد ذلك لتحويلها إلى قطع صغيرة (آبرية) . . فذلك نوع من قطع الخبز الصغيرة المصنوعة من العجينة المخمرة . . لزوم (الفتة) . . التى تقدم لجمهور أهالى القرية بعد سقيها بالحساء ووضعها فى القصاع . . يوم الفرح .

فى ذلك اليوم . . كان كل العشيرة فى بذل الجهد والعطاء لا يبخلون أو يتكاسلون . . وتدور أكواب الشربات . . وترتفع عبارات التهانى للعروسين وآلهم ويزدحم كل ركن من أركان الدارين . . وتخللت كل ذلك نقرات على الدفوف والمزاهر . . وتنوعت الأغنيات الجماعية فى كل ركن . . وهرول الناس بين البيتين . . بيت (إدريس) وبيت (صليحة) يشاركون هنا وهناك بالجهد والفرحة والغناء . . وانتهى اليوم . . يوم (السما) بأمسية راقصة تناسى فيها الأهل والعشيرة جهد اليوم . . وانعقدت حلقات الرقص (الأرغيد) . . وارتفع الغناء والتهبت الأكف بالتصفيق . . وتوالت ضربات الأرجل لأرض حلقة

الرقص . . وتماسكت أيدى الشباب فى دوائر يدورون ويلفون حول بعضهم البعض راقصين مهللين . . ونحن الصغار لا نقل عن الجميع نشاطاً وجلبة وضجيجاً وغناء ودوت نغمات الغناء وأصوات الإيقاعات وضربات الكفوف والزغاريد مع الغناء المستبشر الذى يقول :

هلا هلا . . أيوه هلا هلا
حـــلاوه يا شربات
هلا هلا . . . أيوه هلا هلا
عـــروســه يا شربات
عـــريـــسنا يا شربات

واستمر الغناء . . وحلقات الـ (أراغيد) كل ليلة . . عندما يتجمع شباب القرية من الفتيان والفتيات . . يتجمعون عند دار (العريس) إدريس ، بعد أن يكونوا قد تناولوا طعام العشاء فى بيوتهم . . وهناك ترتفع دقات الطبول ، وتلتهب الأكف بالتصفيق ، وتتردد الأغانى الجماعية ، التى تمتدح العريس وتتحدث عن الحياة الجميلة التى تنتظره مع عروسه الجميلة . . كل ذلك يصنع خضماً كبيراً من النغم . . حيث ترقص الفتيات كأنهن سابحات فى لجة النغمة بينما يحوم حولهم الشباب مصفقين بأكفهم صفقات رتيبة تبعاً لإيقاعات الدفوف . . ويتقافزون ويتثنون كأنهم يمارسون الغطس فى لجة النغمة . . وترتفع (زغاريد) النساء المستبشرة تضفى حلاوة وسروراً على جو حلقة الرقص (الأراغيد) . . ويستمر الحال على هذا المنوال طوال ليالى الأسبوع أو أكثر ، حتى تحين الليلة الأخيرة قبل يوم

الفرح . . وتلك هى ليلة (الحناء) . . وتكون ليلة الحناء هى ذروة ليالى الغناء والرقص الجماعى . . ويكون ذلك قاصراً على دار (العريس) أما عند (العروس) فالأمر يختلف . . مجموعة من النساء وعلى الأخص كبيرات السن . . منهمكات فى (حناء) العروس واستكمال زينتها وإعدادها عروساً للزفاف .

على أننى لم أغفل صداقتى القديمة مع صليحة إمام عروس ذلك الفرح . فأخذت أتردد بين الحين والآخر إلى دارها . . ثم أسرع إلى دار إدريس لأستمتع بعض الوقت بالرقص والغناء الجماعى — (الأراغيد) . . الأمر الذى أتاح لى أن أرى صليحة وهى تتحول إلى جمال أخاذ . . وخصوصاً عندما تدثرت بالدثار الحريرى المخصص للعروس فى ليلة الزفاف (سردحان) . . ذات ألوان بنية وخضراء وصفراء متداخلة فى شكل رقبة الحمام الزاجل الرقيق .

كانت السعادة كلها ظاهرة على وجهها . . تزداد وهجاً عندما تحاول صليحة إمام إخفاءها بتصنع الخجل . . كانت تجلس وسط دائرة من مجموعة من السيدات المجربات . . اللاتى لم تتوقفن عن الغناء ذات النغمة الانسيابية . . أغنيات متوارثة لهذه المناسبات . . هى أغنيات التفاخر بنسب « العروس » . . وشكل من أشكال أغانى التتويج . . (غيتى) . . وتقول إحداها ما معناه :

عـروسـنا درة مكنونة
وعنقـود حبـات نادرة
كم عانوا طلابها وخطـابها

فهى أغـلى درة
مقامها عـالى . . . بنت الأكابر
ومهرها غالى ... بنت الأكابر
الدرة المكنونة ... الدرة النادرة

ظل الغناء والرقص على أشده فى دار (العريس) إدريس حتى انتصف الليل ومرت الساعات بعدها . . وقرب الفجر للبزوغ عندما توقف . . وجاء دور تخضيب العريس بالحناء . . وتوسط إدريس مجموعة السيدات المسنات . . وجيء بخليط الحناء وعطور (المحلبية) و (الصندل) . . تفوح رائحة محببة . . وجلست السيدات حوله يخضبنه بالحناء والخليط . . من رأسه إلى أسفل قدمه . . بينما يمتلىء المكان بالتهليل و (الزغاريد) وأغانى التفاخر الخاصة بالعريس . . فى مثل هذه المناسبة . . أغنيات التفاخر المتوارثة مضموناً ونغمة . . . تقول ما معناه :

تبـارك الله . .	يا آخذ الجميلة
يا فارس العشيرة	يا شبل القبيـلة
أشهر سـيفك	واركب جـوادك
وامرح كما تشاء	فى أرض أجدادك
وتفاخر كما تشاء	بعـز آبائك
تبارك الله . .	. . . .

ويجلجل صوت امرأة عجوز . . تنبرى متحمسة للغناء وتقول من مقطع ما معناه :

امش الحيلاء يا ابن الفوارس

يا ذا الحسب والنسب

فأنت من قبله (كذا) وجدك (كذا) وأعمامك (كذا) .

وتظل تردد أسماء القبيلة ورجالها المرموقين بينما تزغرد النسوة عند كل مقطع وآخر . . وهي تلوح بيدها في حركة التعالى والتفاخر كلما ذكرت اسماً من أسماء رجالات القبيلة .

وتنتهى مراسم تخضيب الحناء بأن يربط خنجر ذات جراب جلدى أنيق على ذراع اليد اليسرى . . بينما تشتد (زغاريد) النساء المحتفلات . . وذلك الخنجر لا يفارق ذراع العريس منذ ليلة (الحناء) حتى أسبوع كامل بعد الزفاف . . فهو في تلك الفترة يظل في أبهى زيه ومظهره . . ويكون موضع جذب لأعين الناس . والخنجر في المعتقدات تبطل أثر عين حسود قد يقع عليه .

في الصباح الباكر من يوم الفرح . . تجمع المقربون والجيران في بيت الفرح . . دار إدريس . . كانوا يقومون بذبح بقرة كاملة . . كان ذلك يتم أيضاً في احتفال . . فالمناسبة تستدعى ذلك . . وكانت زغاريد النساء ترتفع في أركان الدار . . بينما الرجال منهمكون مع البقرة في الذبح والسلخ والتقطيع . . وأكواب (الشربات) تدور على المختلفين .

كنت مندساً بين الموجودين . . أراقب السعادة الغامرة على وجه إدريس . . كان ينظر لبقرته قبل أن تذبح في سعادة بالغة ويقدم لها

البرسيم والماء حتى آخر لحظة . . وتصورت أن البقرة التي لم تفارقه منذ أن ولدت . . تصورت أنها كذلك كانت تشعر بالسعادة والرضا لمشاركتها له أسعد مناسبات حياته . . فقد استسلمت البقرة بين زغاريد النساء لسكين الذابح بدون أى مقاومة وبكل طاعة ورضا . . وكأنها تقدم حياتها قرباناً ووفاء .

كان اليوم يوم (الفرح) . . الشمس تملأ القرية كلها . . وحرارة الجو مرتفعة . . ظلال النخيل والأشجار تبدو فقيرة لا تقوى على ردع الحرارة . . ولكن ذلك الأمر لم يكن فى حسبان الأهل والعشيرة وهم منهمكون فى أمور الفرح فإنهم قد اعتادوا مثل هذا الجو . . فكأن الأمر — أمر الحرارة — لا يهمهم . . وفى ذلك اليوم حرصت الأم سبيلة على أن تلبسنى أحسن ملابسى . . واستعارت حماراً ضئيل الجسم . . بطىء الحركة . . هادئ . . استعارته من أحد المزارعين . . أركبتنى فوقه على جوال كامل ملأته عن آخره من البلح الممتاز . . وسرنا إلى بيت الفرح . . دار إدريس . . فقد كان ذلك الجوال الملىء بالتمر هو هدية الزواج للعريس (النقوط) . . وقد تنقدهم أيضاً بقدر من النقود علاوة على الجوال . . ورأيت آخرين يقدمون قدراً من البلح أقل أو أكثر حسب نوع القرابة أو ما يكونون قد قدموه لهم فى مناسبة مماثلة .

قالت لى الأم سبيلة مشيرة إلى جوال البلح :

— إن شاء الله . . يوم فرحك سيقدمون لنا المثل . . أو ربما أكثر . . أكثر . . إن شاء الله .

وعند دار إدريس استقبلونا بالترحاب والتهليل والزغاريد . .

أو كان ذلك هو الأسلوب الذى يستقبلون به الهدية (النقوط) عندما يكون كبيراً مثل جوال البلح . . ربما .

والحقيقة أن مناسبة الزواج فى تقاليد النوبة . . هى من أهم — المناسبات . . التى يكون فيه الحس الجماعى والاجتماعى فى أسمى وأعلى حالاته . . حتى أننى أذكر أن كبارنا كانوا يقولون : (الفرح بيعمله الملايكه . . . (فالجميع فى أبهى أزيائهم وزينتهم . . ويقدمون أحسن ما عندهم من جهد وأشياء . . وحتى معتقداتهم الأخرى يمارسونها فى تلك المناسبة . . ويظل اليوم بطوله مهرجاناً لجميع أهل القرية كبارهم وصغارهم .

كان الفناء الواسع لدار إدريس يضج بالغناء الجماعى . . وفى ركن منه تجمع عدد من النسوة . . كانوا يحيكون جلباباً هفهافاً من القماش الأبيض (بفتة) . . يحيكونه بخيوط من الحرير ذات الألوان المختلفة المتباينة . . ولايتوقفن عن الغناء المتوارث لمثل هذه المناسبة . . فقد كان هذا الجلباب هو (جلباب العرس) الذى يرتديه العريس للزفاف فوق باقى ملابسه . . تماماً كما هو الأمر بالنسبة لفستان الزفاف للعروس فى المناطق الأخرى من مصر .

الصبية والأطفال من الإناث والذكور لم يتوانوا فى المشاركة بالفرحة . . تسابقاً فى عرض مهاراتنا فى الدق على (الإيقاع) على الدفوف والأوانى النحاسية . . والتصفيق فى تقليد لما يفعله الكبار فى حلقات الرقص (الأراغيد) . . بينما تهادت صغيرات البنات بيننا

مقلدات رقصات السيدات . . ورقصنا وهللنا بأصواتنا الصغيرة . . هاتفين قائلين :

هلا هلا أيو هلا هلا . . . حلاوة يا شربات
عروسة يا شربات . . عريسنا يا شربات . .
هلا هلا أيوه هلا هلا . . . .

* * *

وعرفنا أن إدريس سيزف (زفة البحر) إلى النيل قبل صلاة العصر ليكون جاهزاً بعدها لعقد القران . . ويتم ذلك بأن يخرج جمع من الأهل فى زفة للعريس نحو شاطئ النيل . حيث يقوم العريس بالسباحة فى النيل والاغتسال منه وارتداء ملابسه الجديدة (ملابس العرس) هناك . . وعرفت أن سبب تبكير زفة البحر بالنسبة لإدريس لضرورة عمل طقوس تكريم العلم له (زرافاة) قبل تحرير عقد الزواج على يد المأذون . ذلك الاحتفال أو التقليد الذى لا يعمل إلا للذين حصلوا على قسط من التعليم ، ولو على مستوى (كتاب القرية) . . ويسمونهم حفظة القرآن ويميزون بذلك بين المتعلمين والأميين . . كتقليد متوارث عند أبناء النوبة .

وعندما وصلت زفة البحر بإدريس عند مسافة قريبة من النيل . . انسلخ إدريس وبعض رفاقه من الزفة . . وساروا وهم يقصدون شاطئ النيل ، وتبعناهم نحن الصغار . . وعند الشاطئ خلع إدريس ملابسه وقذف بنفسه فى النيل سابحاً . . وتبعه أصدقاؤه ورفاقه فى ذلك . . ولم نتردد نحن الصغار فى مشاركتهم . . وتسابقنا سابحين فى صخب

ومرح .. حتى خرج العريس من الماء وارتدى ملابس العرس كاملة بما فى ذلك الرداء الأبيض المحاك بالحرير الملون .. ثم احتواه موكب الزفاف من جديد بالغناء والتهليل والدفوف يغنون ما معناه :

إنه حقيق حقيق . . . فرحتنا اليوم حقيقية
ها هو عريسنا . . ها هو نجمنا اليوم
إنه حقيق أكبر عيد . . . أكبر فرحة
فليحفظك الله من عيون الحسود
ها هو عريسنا قد تطهر من ماء النيل
ها هو عريسنا قد صار ملاكاً . . .
حقيق حقيق فرحنا اليوم
« أليا . . . . أليا . . . . أليا »

* * *

وهناك عند الجمع المنتظر عند الدار ، دارت مراسم احتفال العلم (الزارفاه) وعقد القران .

رجال القرية يجلسون فى صفوفهم . . بينهم المأذون . . وعدد من مشايخ القرية المعروفين من حفظة القرآن . . تقدم إدريس وجلس أمام صفوف الرجال . . جلس على سجادة وضعوها تجاه القبلة . . وبدأت عملية تكريم العلم (الزرافاه) . . بأن قدمن له لوحة خشبية بيضاء مكتوب عليها الجزء الأخير من سورة البقرة من أجزاء القرآن الكريم . . فتلاه إدريس قراءة بصوت مسموع على مسامع الحاضرين . . وتعالت الزغاريد . . وقدمت الهدايا له تكريماً للقرآن وحافظ القرآن . .

ثم تمت كتابة عقد القران . . التى ازدادت بعدها التهاليل ودقات الطبول والغناء والفرحة الزائدة . . وبعد فترة كان كل شىء قد بدأ يهدأ . . وجلس المجتمعون جماعات متآنسة متسامرة . . والنسوة منهمكات فى إعداد وجبة العشاء لكل الجموع الحاضرة فى الفرح .

لفت نظرى ما رأيته من الجهد الذى يبذله (عم شمراوى) الرجل المسن فى نجعنا .. كان منهمكاً فى تقديم الطعام والترحيب بهمة الشباب .. همة لا تفتر . . وعرف التفسير من الأم سبيلة عندما قالت لى :

— عمك شمراوى هو كبيرنا جميعاً فى النجع بحكم كبر عمره . . ورزانته .. وشخصيته .. فهو يحل محل أى أب أو كبير فى الواجبات .. وانهمكت بدورى فى تقديم الماء . . وجمع فوارغ الأكل من أمام الجموع مع قرنائى من الأطفال والصبية . . فى انتظار زفة العريس . . وحلقات الرقص (الأراغيد) .

* * *

الحكاية والذكرى (٧)

الليالي الملاح



المجمع .. فهم ضيوفنا كما أن الكبار ضيوف الكبار ..

مجموعة من الشباب الغر يتوسطهم إدريس (العريس) اختاروا هذه الدار مكاناً لتناول العشاء .. يتسامرون في صخب .. ويتبادلون

الحكاية والذكرى (٧)

الليـالى المـلاح

القرية سابحة كلها فى ضوء خافت فى تلك الأمسية .. فالقمر يقترب من الاكتمال . . ويرتفع قرصه المنير رويداً رويداً من خلف التلال الشرقية للقرية . . واكتمل ظهوره حتى ازداد الضوء الفضى يكسو كل شيء . . دارنا وكل الدور المجاورة لبيت إدريس مفتوحة على مصراعيها ، ومخصصة لفرح إدريس . . والرجال والشبان منهمكون فى تقديم طعام العشاء لكل المدعوين الموزعين فى جماعات فى أفنية الدور وغرفها . . القصاع المليئة بالطعام وقطع اللحم تقدم بلا حساب . . وكل أهل النجع فى خدمة القادمين من النجوع الأخرى .

قد يكون الأطفال والصبية لا يقلون عدداً عن الكبار فى تلك الليلة . . فهى ليلة زفاف إدريس إلى عروسه صليحة طبقاً لعادات البلاد . . وكنت بدورى قد نصبت نفسى تلقائياً لحفظ النظام بين من هم مثل عمرى . . أحمل عصاة طويلة وأخيفهم بها . . ولا أتأخر فى تقديم الماء والأكل لهم مع صديقى جمال إمام وباقى أطفال وصبية النجع . . فهم ضيوفنا كما أن الكبار ضيوف الكبار .

مجموعة من الشباب المقربين يتوسطهم إدريس (العريس) اختاروا فناء دارنا مكاناً لتناول العشاء . . يتسامرون فى صخب . . ويتبادلون

النكات والنوادر فى سعادة وفى محاولة لإدخال مزيد من السرور فى نفس إدريس فتلك أهم ليالى عمره . . ويقدم لهم طعاماً مجهزاً لهم بعناية خاصة .

فى دار (عم شعراوى) كانت مجموعة أخرى لا تقل أهمية من مجموعة (العريس) . . كانوا مجموعة مطرب النوبة فى تلك الآونة وهو الفنان « دهب ساميسيب » . . كان الفنان الشهير يتصدر المجلس والجالسين . . وهو رجل مكتمل الرجولة . . أتى لإحياء حفل الزفاف بدعوة خاصة . . مع مجموعته من ضاربى الدفوف والكف . . قامته ممشوقة . . وعلى وجهه ابتسامة مشرقة دائماً . . يرتدى ملابس أنيقة ويلف عمامته على رأسه بشكل خاص يختلف عن باقى الرجال . . فهى على هيئة حلقات كثيرة بجانب بعضها مع إبراز نهاية العمامة من أعلى . . لتظهر نتوء حريرية ذات ألوان كثيرة (شلونتى) . . كان دهب سامسيب يستأثر بأغلب الحديث . . ويديره فى لباقة ضاحكة . . بينما يضحك على سخرياته وضحكاته كل المحيطين به . . فهو نجم الليلة . . وفى ذات المجلس كان رجل آخر ذات أهمية . . كانوا ينادونه باسم (زاريتا) . . اسم غريب ذات جرس خاص . . كان خفيف الظل . . يفرض شخصيته ووجوده على الموجودين رغم أهمية دهب سامسيب . . كان يتميز بخفة الدم والحركة بشكل ملحوظ . . كان طويل القامة نحيف العود . . تظهر (سنة) ذهبية عند طرف فمه إذا ما ابتسم وينادونه باسم (زاريتا) وهو الرجل المسئول عن النظام ، وكذلك تحريك زفة العريس . . وإدارة حركة حلقات الرقص (الأراغيد) . .

فيتحرك بين الحلقة بمفرده ، ويصيح بأسماء الذين يقدمون له — (النقوط) . . نقداً . . (خمسة قروش أو يزيد) . . فى كل مرة .

كل هذه التشكيلة من الناس انتظموا فى الزفة يتوسطهم إدريس (العريس) بملابسه المميزة . . ملابس العرس .. كانوا قد فرغوا من تناول العشاء وجاء دور زفة العريس . . وانتظم دق الدفوف ، وانعقدت دائرة من الجميع . . فى حلقة الرقص والغناء (الأراغيد) .. وأخذ الفنان المطرب دهب سامسيب مكانه يؤدى الغناء بصوت عذب ولا تخطىء النسوة الرد بالغناء الجماعى فى صوت متناسق . . وفى كلمات تعكس ما معناه :

يا سيدة . . ويا ست زينب . . . . .
احفظوا عريسنا . . . ونوروا له طريقه
وباركوا حيـاته . . . واسعدوه ببركتكم
فلتكن سـعادتك غامرة يا عريسنا
فنحن نزفك إلى عروسك الجميـلة
وها نحن فى طـريقنـا إلى دارهـا
دارهـا الذى يتميز بأن كتب . . .
. . . على بابه آيات الحمـد والشكر

* * *

وتزغرد النساء . . وتلتهب الأكف . . أكف الرجال والشباب بالتصفيق . . وتتبارى الفتيات الجميلات فى الرقص الجماعى والغناء . . وهن فى أوج زينتهن بأنواع من الحلى الذهبية والفضية . . والخرز

الملون . . ومتدثرات بالطرح الملونة . . بعد أن تعطرن بعطور تعطر أرجاء المكان .

ويصيح الرجل (زاريتا) الذى يتوسط حلقة الرقص (الأراغيد) .. يصيح قائلا : (سلطة) . . وعندها يتوقف الغناء مع استمرار الإيقاعات رتيبة فينادى بأعلى صوته قائلا :

داعماً . . (فلان) ابن (فلان)
حبا من (فلان) داعماً . . .

وترد النساء بزغرودة متصلة . . ويصيح قائلا : (قاعه) . . فيعود الغناء على ما كان عليه . . ويتكرر ذلك كلما نقد له أحد الموجودين بنقود طالباً إعلان اسمه أو اسم أحد أقربائه أو أحبائه . . تحية للعروسين .

ترتفع حرارة الأداء كلما انتصف الليل . . ويبلغ ذروته عند بيت العروس وأمامه . . وعند ذلك كان الوقت فى الهزيع الأخير من ليلة الزفة . . عندما بدأ الإيقاع . . إيقاع الدفوف يختلف إلى نوع سريع يسمونه إيقاع (كزمباك) وهو الذى يلازم آخر الأغنيات التقليدية لزفة العريس والتى تقول كلماتها ما معناه :

لم تصح الديكة بعد (يا عريسنا)
والليل لا يزال ممتداً إلى ما لا نهاية
وزفافك لم ينته بعد . . . .
ولا يزال الكثير حتى تنتهى ليلتنا
فلم تصح الديكة بعد يا عريسنا

وتشتد قفزات الرقصة المصاحبة للأغنية والتلويح بالأيدى بشكل من أشكال السعادة والفخار .

وفى هذه اللحظات . . كان إدريس (العريس) وقلة من رفاقه ينسحبون من الزفة ، ومن الجمع الصاخب ، مارقين إلى داخل بيت العروس . . وقد حرصت على أن أندس بينهم داخلا إلى مكان العروس صليحة إمام .

كانت العروس (صليحة) تقف فى الغرفة التى أعدت لها بالدار . . تقف فى لباس العروس . . بكامل زينتها وجمالها محاطة ببعض النسوة اللاتى زغردن بمجرد تقدم العريس إدريس منها . . وعندما أزاح الدثار الحريرى (سروحان) من فوق وجهها . . لتبدو جميلة مسبلة العينين فى حياء مصطنع . . ومد يده اليمنى يلمس منها جبهتها فى حنان . . فذلك يرمز إلى أنه قد دخل عليها . . وتحوطه التهانى والقبلات والزغاريد ، قبل أن يعود خارجاً إلى جموع الزفة الصاخبة خارج الدار . . إيذاناً بانتهاء الزفة وتتوقف الإيقاعات والغناء ، ويحل محلها التهليل والتهانى والزغاريد . . ثم الانصراف بالنسبة لجموع — المشاركين فى الزفة . . ليعود هو إلى عروسه .

وعدت إلى دارنا قرب الفجر فى ذلك اليوم ولم أكن أعرف أن التعب والإجهاد قد تملكا منى إلى هذا المدى إلا عندما استلقيت سعيداً على فراشى واستسلمت لنوم عميق .

كان على إدريس (العريس) أن يقضى أسبوعاً كاملا فى المكان الذى أعدوه له هو وعروسه كعادة البلاد فى دار أهل العروس . .

وقبيل غروب شمس كل يوم من أيام الأسبوع كان العروسان يقومان بزيارة للنيل والاغتسال من مائه . . وعند عودتهما عند الدار كان عليهما أن يخطوا فوق نار متأججة سبع مرات ، قبل دخول باب الدار . . مما يمنع عنهما عيون الحسود كمعتقدات أهل النوبة .

وانعقدت ونسات الغناء طول الليالى السبع التى قضاها (العريس) حتى يحل يوم السبوع . . حيث يتبارى الشبان فى الغناء وبث الشوق لمحبوباتهم مع نقرات رتيبة على المزاهر بإيقاع (كومبان كاش) . . فى كل أمسية من أمسيات الأسبوع .

وجاء اليوم السابع . . يوم (السبوع) . . وهو اليوم الذى يغادر فيه العروسان دار العروس إلى دارهما كزوج وزوجة . . ويسير كلا منهما فى موكب صغير معظمه من الفتيات وسيدات الأسرة والجيران . . حاملات معهن ما تجمع من هدايا للعروسين خلال أيام الأسبوع . . موكب صغير سعيد يترنم بغناء رتيب ، عبر دروب القرية ، حتى بيت (العريس) . . وهناك يستقبلان بالترحاب والزغاريد . . ويدخلان الدار بعد أن تقدم لهما كمية من اللبن المحلى بالسكر تفاؤلا بالأسرة الجديدة

ذلك اليوم يوم عودة العريس بعروسه زوجة إلى داره يسمونه يوم الزيارة (نالتى) وفيه يبقى المرافقون لهما لقضاء اليوم معهما حيث تنحر لهم الذبيحة وتقدم لهم أكواب الشربات والفشار والبلح . . وجلس إدريس بين أصدقائه ومرافقيه مرحباً سعيداً . . ودار حديث ضاحك . بين الجمع عندما قال واحد منهم :

— لقد شرفت كل الشباب يا إدريس . . عندما تمكنت يوم

(الدخلة) أن تجعل عروسك تنطق بأول كلمة لك بهدية من خاتم بسيط .

وانبرت العروس (صليحة) من بين صديقاتها تقول :

— هيلوه . . من قال ذلك ؟ أنا ابنة أبي إمام . . أتكلم مقابل خاتم بسيط ؟ . . فشر .

وتدخل إدريس على الفور قائلا :

— لا يا صليحة . . إنه يريد الإثارة . . فالخاتم من الذهب — الخالص . . والفص (الياقوت) . . النادر . . أنت غاليه عندى يا صليحة .

وقال المتكلم ساخراً ضاحكاً :

— لقد بدأ إدريس يخاف من صليحة . . لأنه قال لى أنه جعلها تنطق مقابل خاتم بسيط . . وتخيلت أنه من النحاس . . وضحك الموجودون على طريقة إلقائه . . حتى قال له إدريس متواعداً :

— سنرى ماذا ستعطى عروسك عند دخولك عليها لتكلمك . . وقد يمر أسبوع دون أن تتمكن من إنطاقها وتظل خرساء . . فضحكوا حينما قال الآخر يدافع عن نفسه فى كبرياء ساخر :

— فشر . . إنها ستكلمنى بأول إشارة من أصبعى . . بدون مليم واحد . . وضج المكان . . بالضحك .

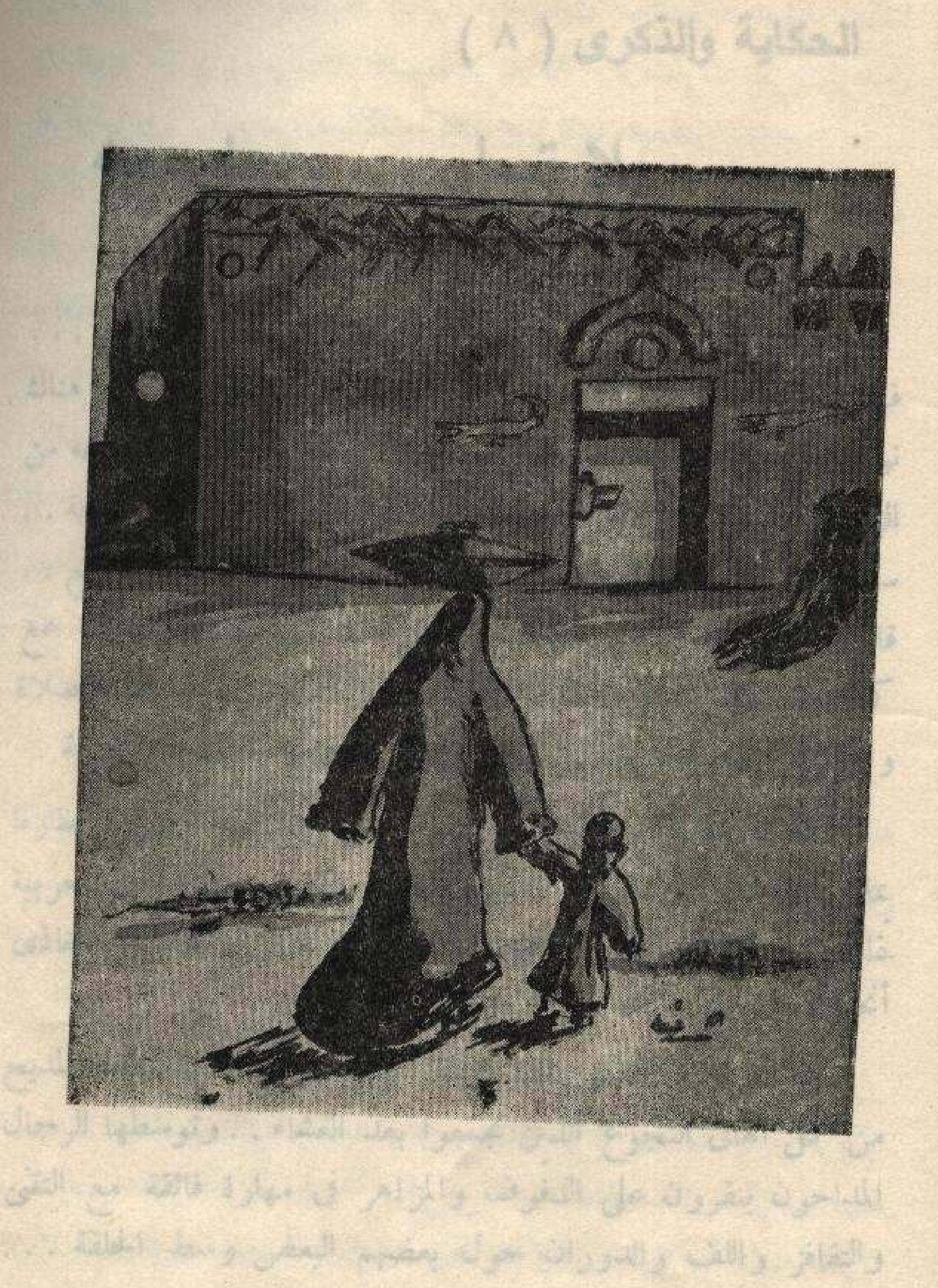
قدمت وجبة الغداء لكل المرافقين فى مناسبة الزيارة (نالتى) . . وخرج العريس إدريس متبوعاً بمجموعة مختارة من قرنائه المرافقين . . خرج من داره يمر على (سبع) بيوت حددوهم له . . يقف عيد

أبوابها بينما يهللون بالغناء والتهانى وحشد كبير منا نحن الأطفال والصبية تتبعه ، وتخرج سيدة الدار مرحبة مهنئة ترش حبات من السكر ، أو الحبوب ، وهى تردد كلمات التهنئة والدعوات الصالحات لإدريس (العريس) . . وتقدم له هدية . . تكون عبارة عن أطباق خوصية جميلة . . أو (براش) مزركشة . . أو طقم شاى . . وهكذا . . ويعود الموكب الذى كانوا يطلقون عليه (موكب الشحاذة) . . يعود لدار إدريس محملا بتلك الهدايا الرمزية . . والتى يعتبرونها نواة لبيت العروسين . . أو الأسرة الجديدة لإدريس وصليحة .

وتنتهى بذلك آخر إجراءات الزواج . . ولتبدأ فى القرية النوبية إجراءات زيجة أخرى . . تبدأ بتقليد التسمية . . أو بدء الفرح — (السما) . . وتنتهى بتقليد الزيارة (لنالتى) . . فهذه هى أيام محصول البلح . . أو موسم البلح . . موسم التزاوج فى النوبة القديمة .

* * *

ومرت الأيام صاخبة . . لا تخلو من زفة عريس . . أو موكب من مواكب الحلب . . أو (لنالتى) . . واستقبالات العائدين من المدن الذين كانوا يطلقون عليهم . . أهل أكتوبر (أكتوبرى) . . نسبة إلى انتهاء زياراتهم للقرى فى شهر أكتوبر من كل عام . . وعودتهم فى ذلك الشهر . . وتكاد تنتهى تلك السمة من الاحتفالات التى تصبغ حياة القرية . . ويبدأ أهل القرية من المرتبطين بحياة القرية . . يبدأون فى الاهتمام بالزراعة فى حقولهم . . وتلقيح نخيلهم فى انتظار موسم آخر من محصول البلح والأفراح وعودة الغائبين .



الحكاية والذكرى (٨)

بلا تـــار ... ومياســـه

تكون القرية النوبية فى احتفالات مستمرة فى موسم البلح . . . فبالإضافة إلى مواكب الحلب . . واحتفالات الزيجات . . كان هناك نوع آخر من الفرق الزائرة . . هى فرق (المداحين) . . مجموعة من الرجال لابسى الأردية البيضاء والعمامات المنسقة . . طوال القامة . . سود البشرة . . يحملون عدداً من الدفوف والمزاهر المتقنة الصنع . . قالوا : إنهم يأتون من الجنوب فى مثل هذه الأوقات . . بهدف جمع كميات من البلح مقابل ما يقدمونه من فنون فى مدح الرسول عليه الصلاة والسلام . . فى حفلات ليلية يعقدونها فى النجوع المختلفة من القرية .

كانت مجموعة المداحين ضيوفاً على نجعنا . . اجتذبوا أنظارنا بملابسهم البيضاء الفضفاضة النظيفة بشكل لافت . . ولهجتهم العربية ذات الجرس المحبب إلى أسماعنا . . (قلت شنو . . جايين بيغاذى أنحنا ما دايرين . . .) .

كانت ليلة لا تنسى تلك الليلة التى استدارت فيها خلقة المديح من كل أهالى النجوع الذين تجمعوا بعد العشاء . . وتوسطها الرجال المداحون ينقرون على الدفوف والمزاهر فى مهارة فائقة مع التثنى والتقافز واللف والدوران حول بعضهم البعض وسط الحلقة . . .

وداخلها .. كانوا ينشدون أناشيد بأصوات مرتفعة مرتعشة .. كنا لا نفهم معانيها . . ولكننا نستوعب نغماتها . . ونشارك بالرد فرحين مستبشرين . . فجرس الكلمات كان محبباً إلينا جميعاً .

وقفت ضمن الصغار من الأطفال والصبية الذين اختاروا مكانهم بين مكان النساء ومكان الرجال . . وشاركنا بالتصفيق والرد . . . وهتافات الاستحسان .

وفى تلك المرة . . وقفت بيننا سيدة طاعنة فى السن ممشوقة القامة .. كانت تحبنا نحن الصغار حباً خاصاً . . وتنادينا دائماً قائلة : يا (عسلى) .. (أملانية) . . وقفت بيننا تلك السيدة (عاشة مياسة) . . تردد معها مقطعاً تقوله فى نغم منسجم ، كما يقوله المداحون من نشيدهم . . نقول فى نغم منسجم معها مرددين :

أروح عند المساكين . . المهاجير يا كوم مدينة
(على خوف) . . . دارة خراب يا كوم مدينة

ونكرر المقطع مع نشيد المداحين . . وكان المقطع لا علاقة له بما يقوله الرجال من مديح بالطبع . . وأذكر أن الأداء طغى على الجميع حتى الكبار من الموجودين أخذوا يرددون معنا نفس المقطع فى انسجام . . ولا يهم المعنى .

هذه السيدة (عاشة مياسة) كانت مرموقة فى النجع المجاور لنجعنا بمجالسها التى يعقدها الجميع للاستماع إلى نكاتها وسخرياتها وتعليقاتها على أمور الحياة . . وهى فضلا على ذلك تحترف مهنة (الماشطة) . . تقضى الساعات والأيام وهى تعمل بأناملها المدربة

فى تضفير شعور النساء إلى ضفائر رفيعة حسب ما تختاره من الأشكال المناسبة للوجوه . . كما تحترف مهنة (الداية) .

شاهدت بنفسى مرة وهى تقوم بتشريط طفل مولود فى أوائل أيامه . . كان الطفل مستسلماً لا يصرخ . . وهى تحدث خدوشاً على كل أجزاء جسده بموس حاد . . ولا بأس من عمل شرطة أو شرطان على خديه يسمونها (الشلوخ) من باب التجميل . . ثم تمسح جسد الوليد بماء مذاب فيه الملح بهدف التطهير . . وهنا تسمع صرخات الطفل لفترة يسكت بعدها . . هادئاً سعيداً .

وعرفت فيما عرفت أن ذلك مفيد صحياً للصغير . . ولتفسير ذلك قالوا : إن الجنين فى بطن أمه فى مكان معقم دون شك . . وعند خروجه للدنيا فإنه معرض لجميع أنواع مكروبات الأمراض . . الأمر الذى يستدعى عمل فتحات فى جلده كنوع من التطعيم الواقى من الأمراض . . ويقيه ذلك من التعرض للأمراض التى تصيب الأطفال الصغار عادة كالسعال والإسهال وغير ذلك . . وتصادف أن مر طفل صغير نحيف الجسد ضامرة فقال لى أحدهم مشيراً إليه :

ـ هذا الطفل عليل . . لأنه لم يشرط جلده عند ولادته . . فقد خافت عليه أمه من ألم التشريط .

وضحك الموجودون عندما قال آخر معلقاً :

ـ المثل يقول : (اضربنى النهاردة . . وفرحنى بكره) .

كانت السيدة عائشة مياسة لها أمور أخرى تخصصت فيها . . فعندما تظهر علامات مرض على حيوان مثل الماعز أو الخراف . .

كانوا يستدعونها لتنصح بالعلاج . . فتأمر أحياناً بخليط من الأعشاب مثل (حلف البر) و (الكمون) و (الدمسيسة) . . لتغلى ويسقى ماؤها للحيوان المريض . . وأحياناً تربط نهاية الذيل جيداً لحبس الدم فيشفى الحيوان . . وربما ينفق ويموت . . فذلك قدره . . وتقابل مثل هذه الحالات بقولهم : بأن الحيوان قد فدى صاحبه من مكروه كان سيصيبه .

كانت السيدة مياسة فى دارنا فى إحدى الأمسيات تجلس القرفصاء أمام الأم سبيلة المستسلمة لها . . بينما أخذت هى تشرط فتحات صغيرة على ساقها . . فهى (تفصد) لها الدم . . أو تعمل لها ما يسمونه (ورتاب) . . لمرض ألم بالأم سبيلة والتى احتست بعد ذلك كوباً من شراب (الجنزبيل) الساخن وامتثلت للشفاء . . على أننى كنت أعرف ذلك النوع من العلاج . . فكثيراً ما قامت الأم سبيلة بعمل ذلك لى عندما أشعر بشىء من التكاسل العام فى جسدى . . وكانت كفيلة بشفائى . وقد يكون ذلك شكلا من أشكال تنشيط الدورة الدموية . . ربما . .

ولا أنسى بأى حال ما حدث لى فى تلك الفترة المبكرة من الطفولة . . عندما أصبت فى عينى بضربة قوية غير مقصودة أثناء لعبة الحجلة (المنداكية) . . فجاءت السيدة عائشة مياسة وفحصت عينى . . وقالت : إن الأمر بسيط فالعين منقولة من مكانها فى المقلة . . نتيجة الضربة . . وأخذت فى علاجى بصب بياض البيض فى الحدقة . . حدقة العين . . وتغطيتها بورق خفيف ء دهنية من الخارج كذلك

ببياض البيض . . الأمر الذى تحول إلى نوع من (الجبيرة) . . وأذكر أننى استرحت تماماً من الألم بعد تلك العملية .. وبعد ساعات استبعدت (الجبيرة) وعادت العين كما كانت . . إن عائشة مياسة كانت سيدة هامة فى حياة سكان نجوع قريتنا .. يتقبلون سخرياتها بهم بصدر رحب .. ويتوددون إليها دائماً .

(بلاتار) اسم أطلق على رجل من أهل قريتنا . . كان رجلا قصير القامة . . يطلق لحيته بلا عناية . . ولا يهتم بحلقها أو تنسيقها . . تتدلى عليها من الجانبي شارب كث . . تظهر أسنانه من بين كل ذلك وكأنه بلا شفتين إذا ما ابتسم أو ضحك . . كان حاد النظرات . . . حديثة ضاحك . . لا تكاد تخلو جملة ينطق بها من السخرية اللاذعة .

قالوا : إن (بلاتار) هذا اسمه الحقيقى (حسين) ولكنه لقب بذلك كناية على أنه لا يحمل كراهية . . أو ضغينة . . أو ثأراً لأحد . . فقلبه كبير يحب كل الناس بلا تفرقة . . وسلوكياته وتصرفاته تدل على أنه بدون ثأر . . (بلاتار) . . ذلك اللقب الذى اكتسبه منذ حدوث تصرف غريب من تصرفاته . . فعندما ماتت زوجته . . وكانا يعيشان بلا أولاد . . أخذته الحيرة من أمر موتها فجأة وبدون مقدمات أو مرض . . وبسرعة حسم الأمر . . ورأى أنه فى حاجة ماسة وسريعة إلى زوجة أخرى تخفف عليه وحدته . . وتشاركه الحياة . . وعلى الفور أخذ حماره وأسرع راكباً إلى نجع بعيد عن مكان داره الذى ماتت به زوجته . . وهناك تمكن من الزواج من أخرى . . وأصر على أخذها معه لداره فى التو واللحظة . . وسارت معه الزوجة الجديدة دون أن

تعلم بخبر وفاة زوجته الأولى التى كانت لم تدفن بعد . . وفى الطريق إلى داره . . اعترض طريقهم بعض المعارف يعزونه فى زوجته المتوفاه . الأمر الذى أثار دهشة الزوجة الجديدة . . ولكنه طمأنها قائلا :

– لماذا الدهشة ؟ . . فالأمر سيان . . فى أن أتزوجك اليوم أو بعد أيام أو شهور . . ما الفرق ؟ . . وأنا قد أسرعت إلى نجعكم البعيد لأتزوجك قبل وصول خبر وفاتها حتى لا تتعطل الأمور بلا داع . . ولم يعطها فرصة التعليق ، بل أضاف يقول :

– ونحن الآن أمام الأمر الواقع . . فأنت زوجتى وعندى حالة وفاة . . ومهمتك تقبل عزاء السيدات فى بيتنا .

ومنذ هذا الحدث عرف باسم (بلا تار) .

كان (بلا تار) يحترف نجارة معدات السواقى (نجار سواق) . . وفى إحدى المرات كان يقوم بإصلاح ساقية . . والرجال من المزارعين يعاونونه فى حمل قطعها وتثبيتها فى أماكنها حسب ما يأمرهم به (بلا تار).

تكالب الرجال على (ترس) كبير مصنوع من الخشب . . . يزحونه إلى وسط الساقية . . ويقيمونه فى مكانه مقاماً على حامل خشبى مدبب من أعلى ومن أسفل (ميشى) . . وترتكز من أسفل على كتلة خشبية يسمونها (القطة) كاديس . . سميت بهذا الأسم لأنها تحدث صوتاً يشبه مواء القطط عندما يدور الترس الكبير حول نفسه مرتكزاً عليها . . وكانوا يعالجونه بالزيوت وعصير النباتات ليصدر صوتاً مناسباً ومكملا للصوت الذى يصدر من أعلى القائم (ميشى) فى نقطة

وصوله من أعلى بقطعة أخرى خشبية يسمونها (العزومة) ..
بير الساقية تتوالى صعود العلب الصفيحية (القواديس) لتصب المياه
بالتناوب فى جدول الماء . . محدثة إيقاعاً مكملا للأصوات الأخرى
ولذلك يجاز تسمية الساقية النوبية أو تشبيهها بآ لة موسيقية لرفع المياه .
وظل الرجال يعملون فى إقامة الساقية بإشراف وتوجيه (بلا تار) حتى
أداروها . . بين التهليل بالفرحة التى طغى عليها أزيز الساقية وصوتها
المنغم وهى تدور . . بينما وقف (بلا تار) باسم الوجه تبرق أسنانه
البيضاء بين لحيته الكثة وشاربه الكثيف .

كنت قد عرفت من الأم سبيلة . . أن بلا تار تربطه قرابة وثيقة
بنا . . وتأكد لى ذلك عندما وجدته يأتى إلى دارنا فى مساء ذلك اليوم . .
ويظل فى فناء دارنا بينما تنشط الأم سبيلة لإعداد عشاء فاخر له . .
وكان واضحاً أنه سيقضى ليلته فى دارنا . . وبدأ الليل يهبط . . .
ولا تفارق مجلسه ذلك المصباح الغازى المضاء . . وبحس طفولى أعرف
سببه خيل إلى أنه قلق فسألته قائلا .

— هل هناك شىء يقلقك أو يخيفك يا عم بلاتار ؟

ضحك لفترة وكأنه قد تذكر أشياء تثير الضحك . . وقال :

— نعم يا بنى . . إننى أخاف من الليل . . الليل يخيفنى ولذلك
حكاية .

واستلقى الرجل (بلاتار) على جانبه مستريحاً . . وأخذ يحكى لى
الحكاية . . قال : أى منذ سنوات . . عندما كان يقوم بعمل الزراعة
ليلا فى فترة صيف قائظة الحرارة . . حدث حادث رهيب . . قال :

إنه فى تلك الليلة ظل يعمل فى حقله حتى ساعة متأخرة بعد منتصف الليل عندما دوى صوت استغاثة . تلاه أصوات هلع ونداءات خائفة مزقت هدوء الليل . . وتركت مكانى فى الحقل بين زراعة الذرة . . لأستوضح الأمر . . وفجأة قفز ذئب كبير الحجم من بين عيدان الذرة الكثة . . وفى المكان الذى قفز منه وجدت جثة طفل صغير غارق فى الدماء . . وقد اقتطع الذئب الهارب جزءاً من جسده وترك باقى الجثة . . واتضح أن ذلك الصياح وتلك الاستغاثة كانت عند اكتشافهم أمر اختطاف الذئب لذلك الطفل القتيل . . وقال (بلاتار) : إنه حمل البقية من جثة الطفل . . ونادى على المستغيثين يخبرهم بأمره .

وتنهد بلاتار العجوز . . وأخذ يسرد القصة . . فقال : إنه بعد تلك الليلة . . صمم على الانتقام من الذئب بنفسه . . وفى كل ليلة كان يخرج من داره مسلحاً بعض الآلات الحادة . . ويظل ينتظر قدوم الذئب لينتقم منه ويقتله . . قال : إنه مرت أيام دون أن يرى الذئب . . وقبيل الفجر القليل . . عاد من مكانه عند حافة الجبل إلى داره . . ولكنه عندما دخل باب الدار الخارجى . . فوجىء بالذئب وقد تبعه كمن يريد أن يفترسه . . ووجد نفسه وجهاً لوجه مع الذئب المفترس . . ولا إرادياً وفى خوف شديد ألقى بآلاته الحادة . . ولا يعرف كيف وأن الذئب قد هجم عليه . . وكيف وأنه تمكن من الرقاد فوقه بعد أن أمكنه فى غمرة الخوف تغطية الذئب بغطاء (لحاف) سميك . . وأنه لم يتخل عن رقدته فوق الذئب الذى فقد المقاومة . . ثم عن ذلك فى عناد وإصرار لفترة لا يعرف مداها . . وأنه ظل يضرب بكلتا

يديه فى قوة خارقة من شدة الخوف . . حتى اتضح النهار . . حين أخذ يصيح ويستغيث ليتجمع الجيران . . وتم قتل الذئب المفترس . .

وتنهد الرجل العجوز (بلاتار) . . وهو ينهى روايته يقول :

— ولا أعرف سبب الخوف الذى انتابنى بعد ذلك فقد وجدت نفسى أخاف من الليل ذاته . . وآوى إلى الدار منذ غروب شمس النهار خوفاً من الليل .

وكاد الخوف يدب فى نفسى أيضاً بعد أن سمعت حكايته مع الذئب والليل . . مما جعلنى أسأله قائلا :

— وهل الليل مخيف إلى هذه الدرجة ؟

قال الرجل المجرب ضاحكاً فى مداعبة ساخرة :

— أبداً يا ولدى . . الليل شىء عادى كالنهار . . ولكن حالتى هى حالة خاصة . . أعرف أنه لا شىء يخيف بالليل . . وأن الذئب وأى كائن هو الذى يخاف من الإنسان . . ورغم ذلك أخاف من الليل . . لماذا ؟ . . بلا سبب .

ثم اعتدل من رقدته وسألنى :

— هل تخاف أنت من الليل ؟

قلت بسرعة نافياً :

— لا . . لا . . لماذا أخاف ؟ ! .

وربت على كتفى . . وهو يضع فى يدى نقوداً ويطلب منى أن أشترى له (سجائر) من متجر القرية . . وخرجت لهذه المأمورية أسير فى دروب القرية إلى المتجر لأعود بطلب العم (بلاتار) . . وكان الظلام قد هبط على أرجاء القرية . . ولا شىء يخيف كما قال « بلاتار » .

الحكاية والذكرى (٩)

دفء الشتاء

صفحة النيل تبدو زرقاء تحاكى زرقة السماء . . فقد تخلص ماء النيل من الغرين . . ورمى بطميه شمالا حيث رمى . . كان الشتاء قد حل بلياليه الشديدة البرودة . . ولا تكاد جيوبى تخلو من بلحات تدسها الأم سبيلة صباح كل يوم . . من البلح الذى اختزنته منذ محصول البلح .

كنت أجلس لفترات طويلة أتأمل صفحة النهر . . وأتأمل كثيراً أماكنها الأكثر زرقة . . فهى الأماكن الأكثر عمقاً . . وتلف حلقات المياه حول نفسها فيها على هيئة دوامات . . ولكل دوامة مسمى . . فتلك هى دوامة آمنة . . (آمنان شيا) . . والأخرى دوامة (دغلا) (ديغلان شيا) .. ويسعدنى السير بين الحقول الممتدة عند نجعنا وهى عامرة بنبات (الفول) واللبلاب (الكشرانغية) . . وسنابل القمح .

كانت حبات الفول واللبلاب المسلوق (آرجية) هى أحب أكلاتنا فى تلك الفترة مع التمر . . ونأخذ كميات منها عند ذهابنا للمدرسة الأولية للقرية . . نقيم بها أودنا حتى نعود منها .

كانت ليالى الشتاء باردة موحشة . . يسمع عواء الذئاب من جوف ظلماتها . . وتحدث تمايلات جذوع النخيل أزيزاً مخيفاً بفعل

الرياح الشديدة ليلا . . يخفف من تأثيرها عواء الكلاب الحارسة للدور رغم شدة البرودة .

كل البيوت بها غرفة مخصصة للشتاء (شيتين حاصل) . . كانت هذه الغرفة فى دارنا هى الغرفة اللصيقة بغرفة إعداد الطعام (ديون نوغ) . . جدرانها بدون فتحات . . غير تلك الكوات الصغيرة (طاقات) فى أعلى الحوائط . تحت السقف المحكم التعريش بجريد النخيل (دوجسيد) . . لتكون أدفأ مكان فى الدار عند برد الشتاء .

كانت غرفة مستطيلة الشكل . . يتوسطها وعاء اسطوانى الشكل صنع من خليط غريب من الطين . . وعلى جوانبه زخارف ونتوء ورسوم وقطع من الصينى (كسر الصينى) . . إمعاناً فى الزخرفة . . فهو يستعمل كمدفأة للنار (دوراة) فى ليالى الشتاء الباردة .

كانت تلك الليلة من ليالى الشتاء . . عندما تجمع الجيران معنا حول (الدوراة) كعادة أهل النجع فى القرية النوبية . . النار متأججة وسط المدفأة (دوراة) . . أكواب من حبات (الحلبة) المغلية تدور بين الحاضرين . . ونحن الصغار نتزاحم حول المدفأة مثرثرين بينما يكتفى الكبار بالجلوس بعيداً وتأمل ألسنة النار . ومارسنا لعبة الشعلة المشتعلة (إيغ تيلية) . . قشة مشتعلة يتبادلها الصغار من يد ليد . . فإذا ما انطفأت القشة عند أحد منا . . كان عليه أن يذكر بالاسم من يحب أن يتزوج . . كنا أولاداً وبنات فى أعمار متقاربة . . وضحكنا كثيراً عندما اختار أحد الصغار اسم سيدة متزوجة ، والتى قالت ضاحكة : (لا بأس من أن تكون زوجى الثانى بعد أن تكبر وتصير رجلا . .

إن شاء الله) . . وعندما ذكر أحدهم اسم سيدة طاعنة فى العمر . . وضج الكبار صاخبين بالضحك على الاختيار . . اختيار الطفل لها فى وجودها . . هناك من قال للسيدة العجوز :

ـ جاءك الفرج أخيراً ياكلثومة بالزوج المناسب .

ـ لا فرق . . ففارق السن فقط سبعون عاماً .

وتتدخل كلثومة العجوز فى الحوار الضاحك تقول لهم :

ـ وما الذى يغيظكم ؟! . . الولد يحبنى وأنا أحبه . . والحب يعمل المعجزات .

وتحادث الطفل فى مداعبة ضاحكة :

ـ خلاص يا حبيبى . . بعد عشرين عاماً . . تكون قد كبرت أنت مثلى ونتزوج . . هيه ؟ . .

وأذكر أنه دب خلاف بين صغير اختار صغيرة . . عندما ـ اعترضت قائلة :

ـ أنت لا تناسبنى . . فأنت بليد فى المدرسة .

وأصر الطفل على موقفه قائلا :

ـ لن أسمح لأحد أن يتزوجك غيرى .

فبكت الصغيرة معترضة حتى تنازل الآخر عن رأيه .. فالبنات كثيرات غيرها .

الحكايات الخيالية (الحدوتة) . . كانت لها مكانتها فى تجمعات الشتاء فى الليالى الباردة حول المدفأة (الدوراة) فليل الشتاء طويل . . ولا مجال للخروج من غرفة الشتاء الدافئة . . وعندما تروى الحدوتة

كان علينا أن نستمع في صمت مطلق . . ولا صوت إلا صوت راوى أو راوية الحدوتة .

في تلك الليلة كانت تروى الحدوتة تلك السيدة صاحبة الصوت الدافىء المتمرس (سكينة سيدى) . . بدأت تروى الحدوتة وتقول :

— إنه في عالم السحر والجمال كان يعيش رجل وامرأة متزوجان . . الرجل اسمه (هيمد) والمرأة اسمها (فانا) . . وكان الرجل (هيمد) . . رجلا على قدر كبير من الطيبة . . يقضى أغلب ساعات نهاره فى كد وتعب ينتزع قوته من حقله . . ثم يعود إلى بيته متعباً جائعاً . . حيث كانت زوجته (فانا) . . آية فى الجمال وكأنها ملاك من السماء . . فافتتن بجمالها (حميد) الطيب . . إلا أنها دأبت على عمل أقراص الخبز له (كابيدة) . . من الدقيق الخشن (الردة) . . مما أثاره فسألها عن السبب . . قالت له : (إن أنفاس) إخوته (راجية) و (مرضية) تأتى من حيث يسكنون وتخلص دقيقها من نعومته ولا تترك إلا الخشن (الردة) .

أثار ذلك (حميد) الطيب . . وقرر أن يتخلص من إخوتيه . . فأخذهما بعيداً على مسيرة شهر خلف الجبال . . وهناك ابتنى لهما بيتاً لا باب له ، إلا فتحة صغيرة من السقف إمعاناً فى سجنهما . . وتركهما هناك وعاد إلى بيته . . ليجد أن الحال لم يتغير بالنسبة لأقراص الخبز . . فهى لا زالت خشنة كما هى . . وأخبرته الزوجة الخائنة بأن أنفاس إخوتيه لا زالت تفعل مفعولها فى دقيقهم من حيث هم رغم بعد المسافة فقرر (حميد) قتل إخوتيه والتخلص منهما ليعود الخبز ناعماً . . ولذلك

أخذ معه كمية من الثعابين والعقارب السامة . . وراح يصبها فى دار إخوتيه خلف الجبال من فتحة السقف . . ولدهشته تحولت الثعابين والعقارب إلى قطع من حلى الذهب والفضة . . ودهش أكثر عندما سمع إخوتيه تجمعان الحلى وهن تتمنيان وجوده معهما ليقتسم الغنيمة . . وهنا رق قلبه وعرف أنه ظلمهما بالظن السىء . . واللتين استقبلتاه بالترحاب والحب الكثير . . عندما هبط إليهما من سقف البيت . . وإمعاناً فى الترحيب به استدعتا الغزالة الملاك التى وهبتهما عناية الله فى خلوتهما . . استدعتاه قائلتان :

— تعالى يا غزالة . . (سيه سجم) .

وأتت الغزالة الجميلة مطيعة مختالة . . وقالتا لها :

— تقطعى وكونى طعاماً شهياً .

فما كانت من الغزالة إلا وأن تحولت إلى قطع شهية من شواء اللحم .

وأكل الجميع مستمتعين . . إلا أنهم احتفظوا بالعظام سليمة . . ودفنوها فى كومة رماد . . ونادت الأختان على الغزالة الملاك قائلتان :

— إرجعى كما كنت يا غزالة . . (سيه سجم) .

فقفزت الغزالة حية جميلة كما كانت . . فعرف حميد . . أن الله لا ينسى المخلصين الذين يحبون الغير ويضحون من أجلهم .

كنا نستمع إلى حدوتة الغزالة الملاك التى ترويها لنا سكينة سيدى . . فى صمت وإمعان شديدين . . عندما وجدناها تنهى الحدوتة . . بقولها . . تلك الكلمات التقليدية فى إنهاء الحواديت فى النوبة . . رددت تقول وكأنها تردد ترانيم :

— (الخضراء . . الخضراء . . لنا . . واليابسة . . اليابسة لكم . . يا سكان عوالم السحر . . فلكم عالمكم . . ولنا عالمنا . . فلتنصرفوا إلى عوالمكم بدون إيذاءنا . . « كومان . . كوماه » . .) .

* * *

على أن الحواديت لم تكن هى وحدها التى تروى فى ليالى الشتاء الباردة حول المدفأة (الدوراة) . . فالألغاز (الفوازير) كانت تأخذ دورها . . وكأننا فى مباراة لاختبارات الذكاء . . تقول فزورة : فالذبابة . . تطن . . بصوت كأنها تقول : سيلك . . بيلك طليا نوه (سيلك . . بيلك . . طليا نوه) . . ويجىء الحل . . بأنه (الذبابة) . .

وفزورة أخرى تقول : (شىء إذا وضع شبع . . وإذا رفع جاع) ما هو هذا الشىء ؟

ويكون الجواب : أنه (الطاقية) فإنها إذا ما وضعت على الرأس تكون مليئة بداخلها . . شبعانة . . وإذا رفعت من الرأس تكون خاوية . . جائعة .

وترتفع أصوات الفرحة . . والاستمتاع بالحلول . . حتى كانت تلك الفزورة التى صعب علينا جميعاً معرفة حلها . . فهو تقول : (يصنع الأطباق وهو يجرى . . .) فما هو ؟ . . وساد الصمت ، والتفكير . . ولم يصل أحد إلى الحل . . بينما صمم قائلها أن نقول جميعاً : (غلب حمارنا) . . وعندها قال : إن المقصود بالفزورة هو حيوان (الجمل) . . فإن أثار أقدامه تظل على الأرض مستديرة كالأطباق . . فهو يصنع الأطباق وهو يجرى . . أليس كذلك ؟! . .

وضحكنا كثيراً على الحل . . بين مقتنع وغير مقتنع . . وتوالت الفوازير والتعليقات والضحكات . . وازداد دفء المكان . . غرفة الشتاء (شيتين حاصل) .

ويستمر السمر حتى فترة متأخرة من الليل . . وهدأة الليل . . تقطعها أحياناً نباحات كثيرة من الكلاب خارج الدار . . نسمعها من مكمننا فى غرفة الشتاء . . ونستنبح أن الكلاب تطارد ثعلباً مارقاً . . أو ضبعاً ماراً . . أو ذئباً مفترساً . . ونسمع على البعد أصوات نهيق حمار . . فيدور جدل بيننا نحن الصغار . . بين قائل : إنه صوت (حمار عم سلوم) . . وآخر يقول : (لا ، بل إنه حمار عم شعراوى) .

يستمر الجدل والحديث عمتد بين الأطفال والصبية بتسانخنا حول (الدوارة) وفى غرفة الشتاء الكل يصف (حمارا) يعرفه بأنه الأجود والأحسن . . والأسرع . . إلا أنى لا أنسى تلك المرة التى قال فيها أحد الصغار من قرنائى : إن حمارهم يجرى مثل (الكهرمان) .

وأقول – وقد تجاوزت سن الخمسين – : إننى لا زلت لا أعرف كيف يجرى (الكهرمان) ؟ . .

* * *

الانـــتماء . . .

« الانتماء » سمة من سمات الجماعة التى لها جذورها الحضارية ويتميز هؤلاء عادة بالانتماء للأرض ، والعشيرة . . وأبناء منطقة « النوبة » من هؤلاء القوم .

ويلمس زائر النوبة سمة الانتماء هناك بمجرد أن يرى نسيج الحياة التقليدية اليومية التى تتوارثها عبر الأجيال . . ويؤكد من تمسكهم بالانتماء عندما يسمع حكاياتهم . وأغنياتهم . ويرى تقاليدهم .

والحكايات التى تستهدف تعميق « الانتماء » كثيرة ، وهى فى نسيجها أقرب إلى الأسطورة . . فتحكى إحداها أنه كان رجل فى خصام إلى حد القطيعة مع ولده . . وكان الابن يعيش بمفرده بعيداً عن دار أبيه . . وفى إحدى الليالى المظلمة من ليالى الشتاء القارسة البرودة ، والرياح العاصفة عرف الأب أن ابنه يستعد للسفر ، فقلق الأب على ابنه قلقاً شديداً ، وخاف عليه من مخاطر السفر فى تلك الليلة . فقرر أن يمنعه من ذلك بأى شكل رغم الخصومة والقطيعة التى بينهما . . فقد كان الوقت شهر (طوبة) أشرس شهور الشتاء عاصفة وبرداً .

وقيل : إن الأب أخذ يحوم حول دار ابنه . . وراح يطلق عقيرته بنداءات ضخمة تختلط بأصوات عواء الذئاب والوحوش ... وزئير

الرياح . . فى كلمات محذرة تقول : لا تسافر يا هذا . . فى (طوبة) و (الميراجا) .

مشيراً بكلمة (الميراجا) إلى خطورة السفر فى ذلك الشهر (طوبة) . . وبهذه الطريقة أمكنه من أن يمنع ابنه من السفر .

وعن الانتماء يقولون فى النوبة : إن (الديك) — وهو ذكر (الدجاج) — يبيض بيضة واحدة كل عام . . فى وقت ما . . فى مكان ما . . ليؤكد ويتأكد من كونه ينتمى إلى فصيلة (ذوات الريش) .

وحكايات وروايات أخرى عن الانتماء . . تقول إحداها : إنه كان هناك (عصفورة) وحيدة حرمت من (الذرية) . . والإنجاب . . فكانت مهمومة دائماً . . حتى كاشفت عصفورة صديقة بأسباب همومها . . فأعارتها الصديقة بيضة من عندها لترقد عليها حتى تفقس . . ثم ترعى الصغيرة بعد خروجها من البيضة وتأخذها ابنة لها . . ففرحت العصفورة وشكرتها على جميل صنعها ونفذت النصيحة وقرت عينها بالصغيرة وأخذت تدربها على الطيران وأمور الحياة . حتى جاءت عاصفة هوجاء عمت المكان . . فلجأت بالصغيرة إلى شجرة ضخمة تحتمى بها حتى تهدأ العاصفة . . ولكنها لاحظت أن العصفورة الصغيرة خائفة وقلقة . . وكانت دهشتها كبيرة عندما قالت لها الصغيرة : إن سبب قلقها وخوفها أنها مشغولة على أمها الحقيقية . . فانتماؤها لأمها الحقيقية صاحبة البيضة التى خرجت منها .

وللأغنية فى (النوبة) دور كبير فى ترسيخ قيمة الانتماء كتلك الأغنية الشعبية المتداولة التى تدور على لسان الابن يخاطب أمه :

إن العصـافير تأوى إلى وكناتهـا . . .
و (القمـارى) . . . تعود إلى أعشاشها . . .
ترى ما الذى أضاع النوم من عينيك يا أمى ؟ !
أيتهـا الأم التى والدتنى بعـد عنـاء وألم . . .
بعـد أن حملتنى شهوراً وشهوراً بين أحشائها
لابد وأن السبب هو غيـاب ابنك البكر . . .
فكأن عينك اليمنى . . . بعيـدة فى الغربة . . .

ومن التقاليد المتوارثة فى النوبة ما يقوم به المسافر قبل أن يغادر قريته فعليه عندئذ أن يخطو سبع خطوات خارجاً من باب داره أولا . . ويأخذ أهله حفنات من التراب من سبعة أماكن داستها أقدامه وينثرون هذا التراب داخل الدار حتى تظل رائحة المسافر داخل داره مهما طالت غيبته . . وبذلك فإن ابن منطقة النوبة يرتبط ارتباطاً وثيقاً بأرضه كما هو الحال بالنسبة لباقى أبناء وادى النيل . فترددت تلك الأمثلة الشعبية الكثيرة التى تعمق معنى الانتماء كالمثـل العامى الذى يقول : (الضفر ما يطلعش من العضم) و (اللى لك لك واللى ما ما لكش مولك لك) . . . إلخ مثل هذه الأمثلة الشعبية الكثيرة . . بجانب تلك الممارسات من العادات والتقاليد المتوارثة فى أنحاء مناطق بلادنا من النوبة والواحات والريف والمدينة فى ذلك الإطار . . مما زاد من أصالة معدن الإنسان فى وادينا . ليكون معطاءاً باراً بأرضه ، وعشيرته . . كالطير مهما طار بعيداً فإنه يعود إلى عشه يتلمس الدفء والأمان فى أحضان العشيرة .

فهرس الكتاب

دار العلوم للطباعة
القاهرة ٨ شارع حسين حجازى « قصر العينى »
ت، ٣٥٥١٧٤٨٠

رقم الايداع بدار الكتب

١٩٨٦/٤٥٨١